الأسس العلمية للبصمة الوراثية والقيافة في القرآن والسنة

د. محمود عبدالله إبراهيم نجا

شبكة الألوكة
www.alukah.net

الأُسُس العلمية للبصمة الوراثية والقيافة في القُرآن والسنة

الباحث:

د. محمود عبدالله ابراهيم نجا

مدرس بقسم الفارماكولوجيا الإكلينيكية

كلية طب– جامعة المنصورة – مصر

mnaga73@hotmail.com

مُقدمة لبيان أهمية البحث وتميزه عن كل ما سبقه من أبحاث عن البصمة الوراثية:

مع ظهور البصمات بكافة أشكالها، بدأ العلم يبتعد عن شهادة اللسان ويتجه إلى شهادة أجزاء الجسد ومنها البصمة الوراثية التي سارع الغرب في الأخذ بها بعد أن ثبت أن الحمض النووي لا يتشابه في شخصين على الإطلاق. وقد نشأ في العالم الإسلامي جدل واسع حول الأخذ بها أو ردها، فوجدنا أنفسنا أمام اتجاهين: الأول يتمثل في الأخذ بها من أجل الحفاظ على الأنساب وحفظ حقوق الصغار في حياة كريمة إعمالا لقول الله (ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله) 5 الأحزاب، والثاني يرفضها عملا بقول النبي صلى الله عليه وسلم (الولد للفراش وللعاهر الحجر) متفق عليه، وأنه لا يجوز تقديم البصمة عن اللعان. وبعد عدة مؤتمرات كان آخرها على ما أعلم تلك التي ناقشها أعضاء المجمع الفقهي في دورته السادسة عشرة بمقر رابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة، وقالوا بأن نتائج البصمة الوراثية تكاد تكون قطعية في إثبات النسب أو نفيه، وأن الخطأ في البصمة الوراثية ليس واردًا من حيث هي، وإنما الخطأ في الجهد البشري أو عوامل التلوث. والذين رفضوا البصمة الوراثية أو وقفوا موقف المتخوف من نتائجها لهم عذرهم حيث لا وجود لأدلة شرعية صريحة تثبت حديث القرآن والسنة عن البصمة الوراثية. ولذا فإن الجديد في هذا البحث المتواضع هو تقديم الأدلة الكافية على ذكر الأُسس العلمية للقيافة والبصمة الوراثية في القرآن والسنة، لكي تكون هاديًا لأهل التخصص؛ لكي يستفيدوا بها في الحكم على مشروعية استخدامها، مع ضرورة التنبيه على أنه بالرغم من ثبوت البصمة الوراثية علميًّا وذكر بعض تفاصيلها في القرآن والسنة كما سأبين لاحقًا، إلا أن هذا لا يعني العمل بها على إطلاقه، بل يجب أخذ كافة الاحتياطات اللازمة لمنع الخطأ والتلاعب بنتائج البصمة الوراثية.

* أهداف البحث:

أولًا: وصف الحمض النووي (البصمة الوراثية) في القرآن والسنة:

1. إثبات حديث القرآن والسنة عن الحمض النووي (البصمة الوراثية) من خلال آيات وأحاديث الخلق والتصوير.

2. توضيح الأُسس العلمية التي يقوم عليها اختبار البصمة الوراثية في القرآن والسنة.

3. إثبات أن نسب الذرية البشرية إلى آدم (بني آدم) يكون بالبصمة الوراثية، فالله لم ينسب الله الذرية لآدم فيقول (يا بني آدم)، ولم يحكي عن أخذ الذرية من الأصلاب (وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم) 172 الأعراف، إلا بعد أن بين كيفية خلق وتصوير الذرية في الأصلاب (خلقناكم ثم صورناكم) 11 الأعراف، ثم في الأرحام (هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء) 6 آل عمران.

ثانيًا: البصمة الوراثية في قضايا النسب مع ربطها بالفراش والقيافة:

4. تعريف الفراش من الناحية العلمية وتوضيح علاقته بالبصمة الوراثية وبالقيافة

5. تعريف القيافة علميًّا وتوضيح علاقتها بالبصمة الوراثية وبالفراش، مع بيان الأسس العلمية التي استخدمها النبي صلي الله عليه وسلم لممارسة القيافة لرفع التعارض الظاهري بين قبوله لها مرة وردها مرة أخرى.

6. لماذا ينبغي تقديم البصمة الوراثية على القيافة؟

7. هل يمكن اعتبار البصمة الوراثية شاهد قبل اللعان؟ رؤية جديدة ربما تخدُم الفُقهاء.

ثالثًا: البصمة الوراثية في قضايا الجريمة:

8. البصمة الوراثية وعلم الجريمة، لماذا يفضل استخدامها كقرينة وليس كدليل دامغ؟

* تحقيق الهدف الأول للبحث:

إثبات حديث القرآن والسنة عن الحمض النووي ودوره في نقل الصفات الوراثية:

* النص المعجز:

1. آيات التصوير: (هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ في الأرحام كَيْفَ يَشَاءُ) 6 آل عمران، (وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ)11 الأعراف، (وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ) 64 غافر، (الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ)24 الحشر، (هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ ومِنْكُمْ مُؤْمِنٌ واللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ. خَلَقَ السَّمَاوَاتِ والأرض بِالْحَقِّ وصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وإِلَيْهِ الْمَصِيرُ) 2، 3 التغابن، (في أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ) 7، 8 الانفطار.

2. أحاديث التصوير: (إذا مر بالنطفة اثنتان وأربعون ليله بعث الله إليها ملكا فصورها وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها عظامها ثم قال يا رب ذكر أم أنثى فيقضي ربك ما يشاء ويكتب الملك) رواه مسلم. و(سجد وجهي للذي خلقه وصوره وشق سمعه وبصره)؛ رواه مسلم، وزاد في رواية أخرى (وصوَّره فأحسن صورَه) وجاءت هذه الزيادة في صحيح ابن حبان (سجَد وجهي للَّذي خلَقه وصوَّره فأحسَن صُورَه)، و(سجدَ وجهي للَّذي خلقَهُ وصوَّرَهُ فأحسَنَ صورتَهُ)؛ رواه أبو داود والنسائي، وصححه الألباني.

و(إذا أراد الله جل ذكره أن يخلق النسمة فجامع الرجل المرأة طار ماؤه في كل عرق وعصب منها فإذا كان يوم السابع أحضر الله عز وجل له كل عرق بينه وبين آدم ثم قرأ "في أي صورة ما شاء ركبك") رواه الطبراني، وصححه الألباني.

* الحقيقة العلمية:

من المعلوم حديثًا أن الخلية هي وحدة بناء الكائنات الحية ومنها الإنسان، وكل خلية تحتوى على صورة للكائن الحي تعرف باسم الحمض النووي (دنا = DNA) الذي يحمل الشفرة الوراثية لكل صفات الكائن الحي المرئية وغير المرئية (كاللون والطول والعقل)، وكأن الله قد جعل للكائن الحي تمثالًا أو صورة متناهية في الصغر بداخل نواة الخلية في حيز لا يزيد عن واحد على المليون من المليمتر المكعب ولكنه إذا فُرِدَ يزيد طوله على المترين (صورة 1).

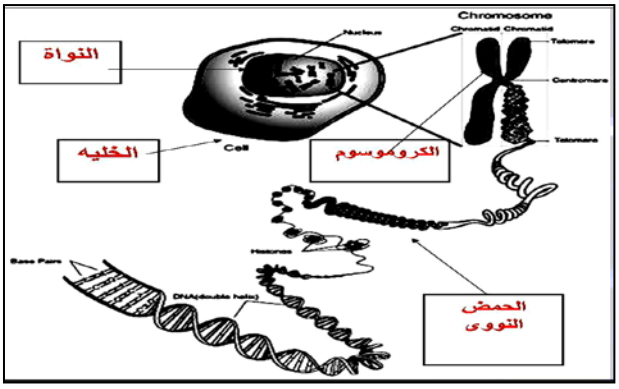

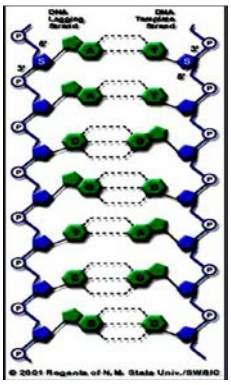

(صورة 1: شكل الكروموسوم والحمض النووي بداخل الخلية) (صوره 2: شكل وتركيب الحمض النووي)

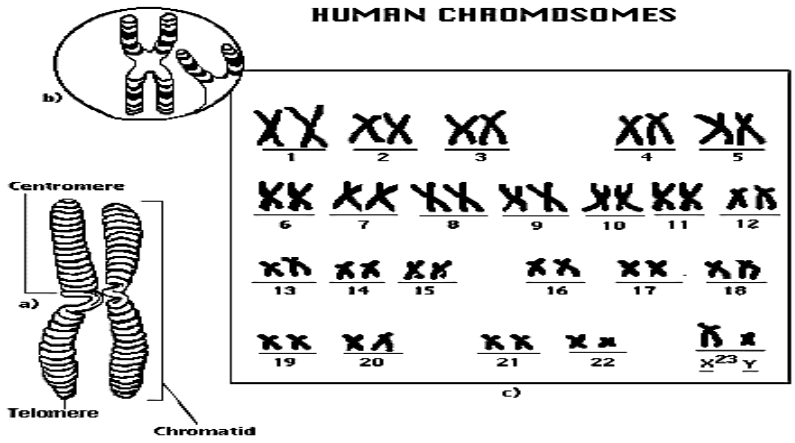

ويتكون الحمض النووي من حلزونيين مُلتفين حول بعضهما وهو بدوره يحمل الجينات المسؤولة عن الصفات الوراثية الخاصة بكل إنسان. وكل جين يتركب من تتابع معين من القواعد الأمينية (Nucleotides) والتي تنحصر في أربعة أنواع وهي(ايه=A) و(جي=G) و(تي=T) و(سي=C) بحيث إن القواعد الموجودة على

أحد الحلزونيين تكون مكمله للقواعد الموجودة على الحلزون الآخر كما لو كان أحد الحلزونيين يمثل صورة الحلزون الآخر في المرآة بحيث تكون القاعدة (ايه) مكمله ل(تي) والقاعدة (جي) مكمله ل(سي) (صوره 2). وفي بعض مراحل انقسام الخلية نجد الحمض النووي الذي يمثل صورة كاملة للجسد قد ظهر مقسما إلى ستة وأربعين جسيم صبغي تعرف باسم الصبغيات أو الكروموسومات والتي يشبه كل منها حرف إكس (X) إلا في كروموسوم الذكورة الذي يشبه حرف واي (Y)، وهي مرتبه في أزواج عددها ثلاثة وعشرين زوجا، كل منها متماثل في الشكل ومختلف في التركيب الجيني (صورة 3). ويتكون كل كروموسوم من خيطين متصلين بنقطه مركزية تعرف بالسينترومير (centromere).

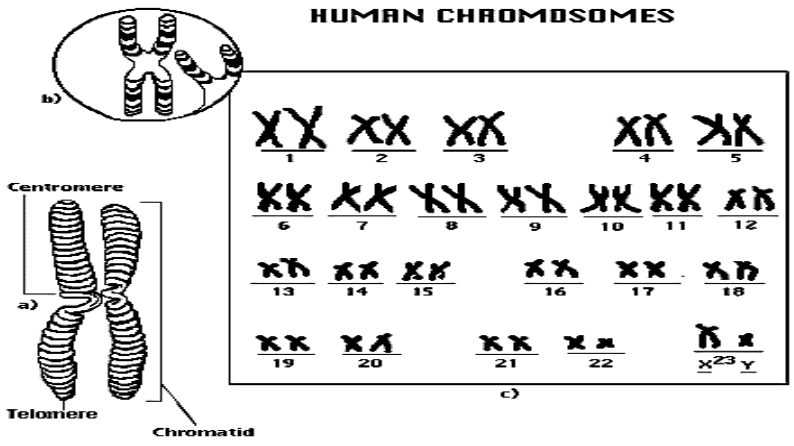

(صورة 3: شكل الكروموسومات البشرية)

ومن المعلوم أيضًا أن خلايا الكائنات الحية التي تتكاثر بالأمشاج ومنها الإنسان تنقسم إلى نوعين:

1. الخلايا الجسدية: توجد في كل أعضاء الجسد ما عدا الخصية والمبيض، وهي تقوم بجميع وظائف الجسد ماعدا التكاثر، وكثير منها يتجدد من خلال الانقسام الميتوزي والذي يحدث فيه نسخ (أو تصوير) للحمض النووي للخلية كما هو لتتكون خليتين كل منهما صورة طبق الأصل من الخلية الأم.

2. الخلايا الجنسية: توجد في الخصية والمبيض، وظيفتها إنتاج الأمشاج الذكرية والأنثوية من خلال الانقسام الميوزي الذي يؤدى إلى تحسين الصفات الوراثية في الأبناء، فتكون الخلايا الناتجة من الانقسام مختلفة وراثيا عن الخلايا الجنسية للآباء، وذلك عن طريق عملية التصالب (العبور = الكيازما) (صورة 4). وقبل أن تدخل الخلايا الجنسية في الانقسام الميوزي المحسن للنسل فإنها تنقسم ميتوزيا من أجل زيادة عدد الخلايا الجنسية في الأصلاب وتكوين مخزون للمستقبل، وفيه تكون الخلية الجنسية الناتجة مماثلة للأصل (صورة 5).

كافة خلايا البشر إلا الأمشاج بها حمض نووي كامل (صورة كاملة للجسد) يتركب من 46 كروموسوم فردي، أما خلايا الأمشاج فبها نصف الحمض النووي (نصف صورة للجسد) ويتركب من 23 كروموسوم فردي. بعد التلقيح تلتقي الأمشاج التي تحمل نصف المادة الوراثية في الرحم لتتكون النطفة الأمشاج التي تحمل شفرة وراثية كاملة (صورة كاملة) للذرية، أحد نصفيها من الذكر والآخر من الأنثى (صورة 6)، ولذا يقول من يبحث عن زوجة (أبحث عن النصف الآخر)، أي أبحث عن النصف الآخر من صفات الأبناء الوراثية. مع ملاحظة أن الحمض النووي للذرية في النطفة الأمشاج يمكن تسميته بالصورة المركبة (composite DNA = composite image)؛؛ لأنه يتركب من نصفين أحدهما من الأب والآخر من الأم، فالصورة المركبة هي أدق وصف للحمض النووي في النطفة الأمشاج (صورة 6). والصورة المركبة في النطفة الأمشاج مسؤولة عن تصوير الذرية في الأرحام من خلال تصوير كل جين بها لخلق البروتين المماثل، فكأن تمثال الشفرة في النطفة يعمل كقالب لصب الذرية عليه في الأرحام.

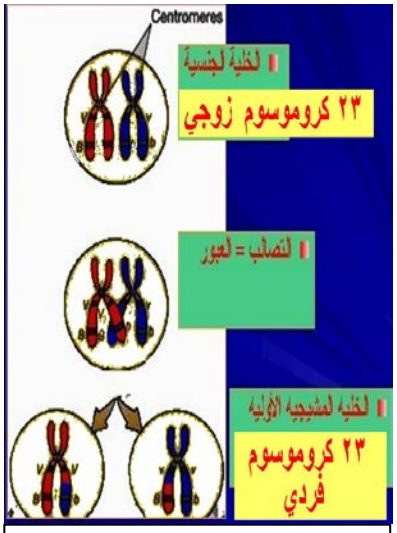

صورة 4: الانقسام الميوزى

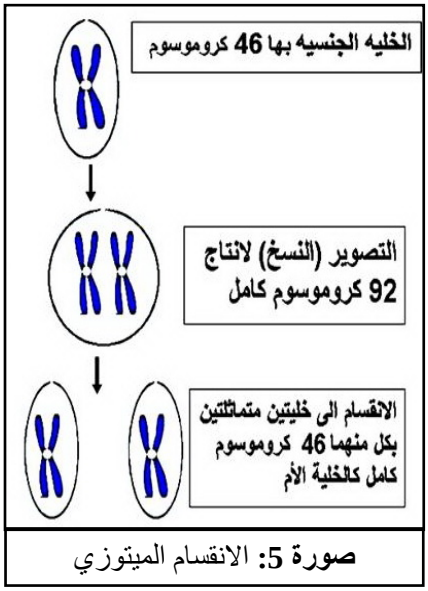

صورة 5: الانقسام الميتوزي

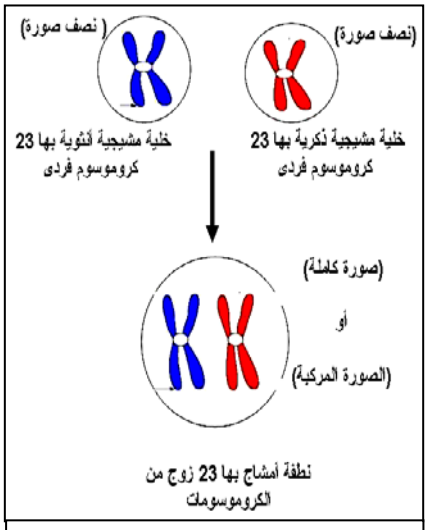

صورة 6: الصورة المركبة للحمض النووي

مثال بسيط يوضح الفرق بين الانقسام الميتوزي (تصوير مماثل للأصل) والميوزي (تصوير تحسيني)

إذا أردنا صناعة عدد ضخم من كيكة ذات شكل معين فإن ذلك يستهلك وقتًا كبيرًا وخصوصًا إذا كان شكل الكيكة معقد، ولكن مع اختراع القوالب أصبح الأمر أسهل حيث نقوم بصناعة الكيكة الأولى أيا كان شكلها ثم نقوم بعمل قالب لهذا الشكل ونقوم بصب العجين في هذا القالب بعدد المرات التي نحتاجها فنحصل في كل مرة على كيكة شبيهة بالأولي، وهذه فكرة الانقسام الميتوزي؛ حيث يعمل الحمض النووي كقالب تصب عليه خلايا مماثلة للأصل، ولو كان هذا النوع هو المستخدم في التكاثر الجنسي في الإنسان

لكانت ذرية الإنسان صورة مماثلة من الأصل (صورة 7). أما إذا أردنا أن نغير في شكل الكيكات الناتجة فكل ما علينا أن نفعله أن نغير في شكل القالب لنجد أن الصورة قد اختلفت عن الأصل، وهذا هو الانقسام الميوزي الذي يحدث به تحسين للنسل من خلال عملية التصالب التي تغير قالب الذرية (الحمض النووي) في الأمشاج ليختلف عن الحمض النووي للآباء وبالتالي يعطي نسل جديد في الصفات الوراثية (صورة 8).

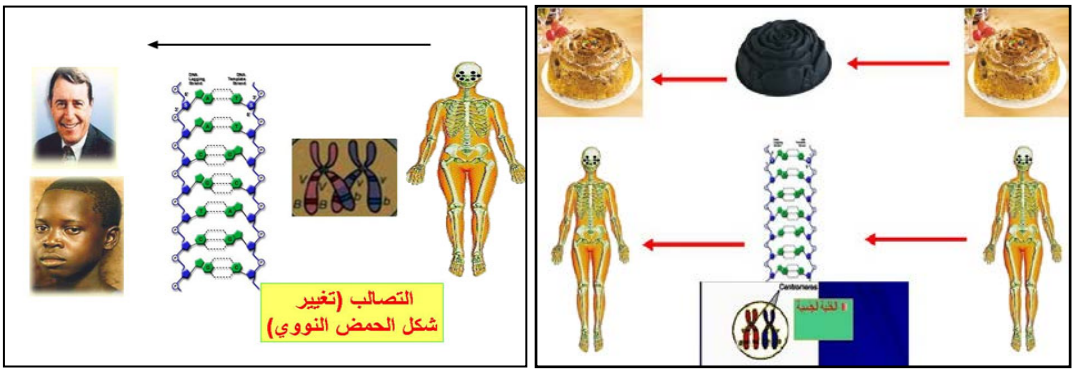

(صورة 7: قالب لصب صورة مماثلة للأصل = ميتوزي) (صورة 8: إنتاج ذرية مختلفة عن الأصل = الميوزي)

(صورة 7: قالب لصب صورة مماثلة للأصل = ميتوزي) (صورة 8: إنتاج ذرية مختلفة عن الأصل = الميوزي)

البحث عن مُسمي الحمض النووي في القرآن والسنة:

حين نبحث عن الحمض النووي في القرآن والسنة لا نبحث عن الاسم لتغيره بتغير الزمان واللغات، ولكن نبحث عن الصفات الثابتة، ومن أهمها أنه يعمل كفيلم قابل للاستنساخ ويحمل شفرة وراثية تمثل صورة طبق الأصل أو تمثال للكائن الحي. والنطفة التي تحمل الحمض النووي تمثل حلقة وصل بين الآباء والأبناء {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ. ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ} 12،13 المؤمنون، الهاء في (جَعَلْنَاهُ) عائدة على الإنسان بكل صفاته، وفي هذا إعجاز علمي دقيق، فكيف تتساوى نطفة لا تكاد تُرى بالعين مع إنسان يتركب من بلايين الخلايا، فكأننا نقول (حجم فيل ويتلف في منديل)، ولكن العلم وجد بالنطفة صورة كاملة للإنسان سماها الحمض النووي (الإنسان الجيني أو صورة الإنسان). ولما كان الجعل في أحد معانيه هو الصيرورة (تحول من صورة إلى صورة)، أي تحول الإنسان الأول إلى نطفة بآلية معينة حدثت في الأصلاب حيث تم خلق وتصوير نطفة الذرية من الخلايا الجنسية للآباء (صورة 9).

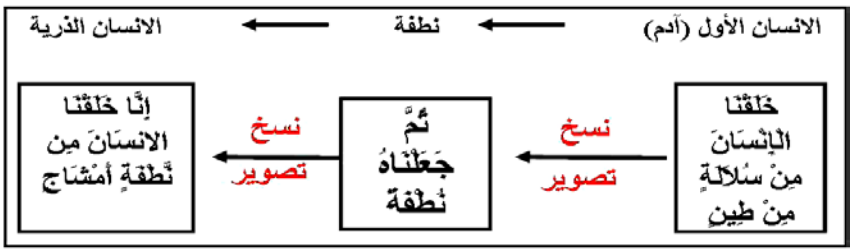

(صورة 9: التصوير وتوريث الصفات الوراثية من الآباء إلى الأبناء عبر النطفة)

والعلم حين يفسر آلية انتقال الصفات الوراثية من الآباء إلى الأبناء عبر النطفة يقول بأنه يحدث نسخ للحمض النووي في الخلايا الجنسية للخصية والمبيض لتتكون الأمشاج الذكرية والأنثوية التي تتحد في الأرحام لتعطى النطفة الأمشاج، ثم يحدث نسخ للحمض النووي الموجود في النطفة الأمشاج لتتكون منه أعضاء الجنين في الرحم. أما في القرآن والسنة نجد كلمة أخرى أدق من كلمة النسخ **(Copy = Transcript)** وهي كلمة التصوير، على اعتبار أن الحمض النووي صورة للجسد. ولذا يجب إثبات أن أحد مقاصد التصوير في القرآن والسنة هو وصف انتقال الصفات الوراثية من الآباء (الأصل) إلى الأبناء (الصورة) عبر النطفة، ولابد من إثبات أن من معاني التصوير في لغة العرب الإيجاد على صفة سابقة (أي أن هناك أصل نأخذ له صورة)، فآدم وحواء كجسد هما الأصل والحمض النووي لهما صورة، ومن هذه الصورة تم تصوير الذرية في الأصلاب ثم في الأرحام، كما يجب أن نثبت أن كلمة التصوير المستخدمة في القرآن والسنة أدق من كلمة النسخ المستخدمة في لغة العلم الحديث.

* أدلة ارتباط التصوير في القرآن والسنة بانتقال الصفات الوراثية عبر الحمض النووي في الأمشاج:

1. التصوير في الأرحام (فهمه النبي صلى الله عليه وسلم على أنه انتقال للصفات الوراثية)

معنى التصوير في (هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ}، يفسره حديث النبي صلى الله عليه وسلم (إذا مر بالنطفة اثنتان وأربعين ليله بعث الله إليها ملكا فصورها وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها وعظامها.....الحديث)، فهناك تصوير من النطفة قبل خلق الأعضاء، وهو ما وصفه العلم بنسخ الحمض النووي للنطفة وترجمته إلى بروتينات الأعضاء، فهو يعمل كقالب تصب عليه الذرية، والاختلافات بين البشر ترجع لاختلاف القالب الخاص بكل فرد.

قال الإمام الرازي في تفسيره (التصوير جعل الشيء على صورة، والصورة: هيئة حاصلة للشيء عند إيقاع التأليف بين أجزائه، وأصله من صاره يصوره إذا أماله، فهي صورة؛؛؛ لأنها مائلة إلى شكل أبويه)، وقال الآلوسي في تفسيره (التصوير: جعل الشيء على صورة لم يكن عليها، والصورة: هيئة يكون عليها الشيء بالتأليف)، وقال الشعراوي في تفسيره (التصوير في الرحم هو إيجاد المادة التي سيوجد منها الإنسان على هيئة خاصة تختلف نوعيتها في الذكورة والأنوثة، وفي الأشكال والألوان، وهذا الاختلاف في الألوان والألسنة يَدُل على أنها ليست من إنتاج قالب واحد، فكل مولود يصنعه الله بقدرة ذاتية. فأي صانع إذا أردت أن يصنع لك كوبًا مثلا، يصنع قالبًا ويكرره، لكن في الخلق البشري كل واحد بقالبه الخاص..... انتهى بتصرف). هذا القالب الذي أشار إليه الشعراوي هو الحمض النووي للنطفة والذي منه تصوير الذرية في الأرحام، ويتم تصويره من الآباء في الأصلاب، ولو قدر الله أن ينطق لقال (أنا منك وأنت مني، أنا صورتك وأنت صورتي)،؛؛ لأنه يخرج من الإنسان على هيئة الأمشاج التي تمثل صورة من الحمض النووي للخلايا الجنسية، والإنسان يخرج من الحمض النووي للنطفة الأمشاج، فالإنسان صورة الحمض النووي في النطفة.

2. معنى الصورة المركبة في قول الله (في أي صورة ما شاء ركبك).

معنى الصورة المركبة (في أي صورة ما شاء ركبك)، يفسره حديث النبي صلى الله عليه وسلم (إذا أراد الله جل ذكره أن يخلق النسمة فجامع الرجل المرأة طار ماؤه في كل عرق وعصب منها فإذا كان يوم السابع أحضر الله عز وجل له كل عرق بينه وبين آدم ثم قرأ: في أي صورة ما شاء ركبك)، فالنبي لم يقل أن الصورة هنا هي الشكل الخارجي ولكن شرح كيفية تركيب صورة الإنسان في النطفة أي ما منه تقدير صفاته الوراثية، وذلك من

ماء الرجل الذي يطير في كل عرق وعصب من المرأة وهو كناية عن ما منه النسب في المرأة وهو أمشاجها، فإذا تكونت النطفة كانت هي المسؤولة عن شكل وشبه الجنين لأقاربه من لدن أبيه وأمه حتى آدم عليه السلام. ويؤكد هذا التفسير ما قاله ابن تيمية في درء تعارض العقل والنقل (كل مركب يحتاج إلى من يركبه ومعنى ذلك أنه كان هناك شيء متفرق فركبه مركب. وقال التركيب يراد به تركيب شيء من أجزاء كانت متفرقة فاجتمعت كتركيب الأدوية. وقد يراد بالمركب ما لا يمتزج فيه احد الاثنين بالآخر كما يقال ركب الباب في موضعه وهذا التركيب اخص من الأول وهو المشهور وقد قال تعالى (في أي صورة ما شاء ركبك). ومعلوم أن الإنسان لم تتفرق أعضائه قط فاجتمعت، بل خلقه الله من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة، ولكن الذي كان متفرقا فركبه الله هو الأمشاج التي جمعها الله ببعضها في النطفة الأمشاج....انتهى).

3. الخلق لآدم والتصوير للذرية (السلف كانوا يفهمون أن التصوير هو انتقال الصفات الوراثية):

اختلف المفسرون في (وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ)، فمنهم من قال أن الخلق والتصوير لآدم فقط وليس للذرية حيث إن آدم لم يتزوج حواء إلا بعد السجود، وفات عليهم أن الله خلق آدم وحواء وفيهما الخلايا الجنسية المسؤولة عن خلق أمشاج الذرية (الخصية والمبيض)، وأن الإنسان يخلق في الأصلاب قبل أن يخلق في الأرحام {فَلْيَنظُرِ الإنسان مِمَّ خُلِقَ. خُلِقَ مِن مَّاء دَافِقٍ. يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ والتَّرَائِبِ }الطارق5،6،7، ولذا ذهب كثير من السلف ومنهم ابن عباس وقتادة إلى أن الخلق لآدم والتصوير للذرية في قول الله (خلقناكم ثم صورناكم)، وقال بعض العلماء أي أن الله خلقنا بخلق آدم وحواء، ثم صورنا بتصوير آدم وحواء، فبدون الحمض النووي القابل للنسخ (التصوير) في الخلايا الجنسية لم تكن أمشاج ولا ذرية. وقد أبدع القرطبي في تفسيره حين جمع بين هذه الأقوال فقال (كل هذه الأقوال محتمل وأصحها ما يعضده التنزيل قال تعالى {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ} يعني آدم و{خَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا} حواء {ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ} أي جعلنا ذريته نطفا خلقوا في أصلاب الآباء وصوروا في الأرحام. فيكون معنى الآية، بدأ الله خلقكم أيها الناس بآدم وحواء وخلقكم منهما بخلق الأمشاج التي تحمل التقدير لخلقكم وتصويركم في الأرحام ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم....انتهى). وحديثًا قال الشعراوي في تفسيره (وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ)، أي (طمر الله الخلق جميعًا في خلق آدم، والعلم الحديث يعطينا أيضًا مؤشرات على ذلك، حين يأتون ببذرة ويكتشفون فيها كل مقومات الثمرة، وكذلك الحيوان المنوي توجد فيه كل صفات الإنسان. ولذلك فقانون الوراثة يقول أن حياة كل منا تتسلسل عن آخر، فأنت من ميكروب أبيك، وقد نزل من والدك، ووالدك جاء من ميكروب جده، وعلى ذلك فكل إنسان الآن فيه جزئ من لدن آدم، وعليه فكلنا كنا مطمورين في جزيئات آدم، قال تعالى (وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وأَشْهَدَهُمْ عَلَى

أَنفُسِهِمْ) الأعراف: 172، فالله أخرجنا من ظهر آدم، وهكذا كان الخلق أولًا والتصوير أولًا، وكل ذلك في ترتيب طبيعي، فإذا خاطب آدم وخاطب ذريته فكأنه يخاطبنا جميعًا.....انتهى بتصرف).

الحاصل أن الله خلقنا بخلقه لآدم وصورنا بتصويره، فالتصوير يخص انتقال الصفات الوراثية من الآباء إلى الأبناء، ووصف الحمض النووي لآدم وحواء بالصورة، ووصف الحمض النووي للذرية بالصورة المركبة.

4. لفظة التصوير في لغة العرب ووصف العلاقة بين الحمض النووي والكائن الحي:

بعد الرجوع إلى معاجم اللغة العربية كمعجم مقاييس اللغة ومعجم لغة الفقهاء ولسان العرب، نجد أن لغة العرب تجيز لنا إطلاق وصف الصورة والتصوير على العلاقة بين الحمض النووي والكائن الحي للأسباب الآتية:

1. التصوير يعني المشابهة والمشاكلة: فأصل اشتقاق كلمة الصورة من صاره إلى كذا إذا أماله، فالصورة تكون مائلة إلى شبه وهيئة الأصل المصوّر، وهذا المعني أساسي في وصف العلاقة بين الحمض النووي والكائن الحي، إذ أن لكل كائن الحمض النووي الخاص به والذي يعتبر صورة خاصة تميزه عن غيره من الكائنات (بصمة وراثية).

2. التصوير يعني التخطيط والتشكيل (إيجاد شيء في حيز الواقع): يقال صوره، إذا جعل له صورة وشكلا أو نقشا معينا، وهذا المعني أيضًا أساسي في العلاقة بين الحمض النووي والكائن الحي، فالحمض النووي يتركب من عدة مركبات كيميائية ثابتة في كل الكائنات الحية، إلا أن لها تخطيط وتشكيل معين يختلف من كائن إلى آخر، بحيث لا نجد كائنين لهما نفس الحمض النووي من حيث التخطيط والتشكيل، فيكون لكل مخلوق من مخلوقات الله حمض نووي خاص كما أن لكل مخلوق صورة شكلية خاصة، ولذا يطلق على الله المصور؛؛ لأنه هو الذي صَوَّر جميع الموجودات ورتبها فأعطى كل شيء منها صورة خاصة يتميز بها على كثرتها، أي هو الذي صنع هذه الصور بعد أن اخترعها.

و ينبغي الانتباه إلى أن التصوير بمعنى التخطيط والتشكيل لا ينفك أبدًا عن المشابهة والمشاكلة، فلا شك في أن عمل صورة لشيء ما سواء أكان موجود في الواقع أو متصور في العقل والعلم (اختراع)، يدل على مشابهة بين الأصل والصورة. ولذا قال الرازي في تفسيره (التصوير جعل الشيء على صورة، والصورة: هيئة حاصلة للشيء عند إيقاع التأليف بين أجزائه، وأصله من صاره يصوره إذا أماله، فهي صورة؛؛ لأنها مائلة إلى شكل أبويه)، وقال الألوسي في تفسيره (التصوير جعل الشيء على صورة لم يكن عليها، والصورة: هيئة يكون عليها الشيء بالتأليف).

5. دقة كلمة التصوير عن كلمة النسخ في وصف انتقال الصفات الوراثية عبر الحمض النووي:

كلمة التصوير أدق من كلمة النسخ (Copy = Transcript) المستخدمة في اللغة الانجليزية لوصف انتقال الصفات الوراثية من الآباء إلى الأبناء عبر الأمشاج؛ لأن النسخ يقتضي النقل الحرفي بدون تغيير، أي المساواة أو التكرار، ومنه قول الله {إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ }الجاثية29، أي ننسخ ما تكتبه الحفظة بلا تغيير، فالنسخ يدل على أنه لا يوجد هناك تحسين في النسل، ومنه استنساخ النعجة دوللي التي جاءت صورة طبق الأصل من أمها، ولأن الأبناء ليسوا نُسخًا من الآباء في الصفات الوراثية، لم يستخدم الله كلمة النسخ مع إيجاد الذرية لعدم دقتها، واستخدم الأدق وهو التصوير، فكلمة التصوير أو (التمثيل) في لغة العرب تدل على معنيين يُكمل أحدُهما الآخر في إنشاء الذرية في الأصلاب:

فالمعنى الأول للتصوير يدل على التماثل الكامل بين الصورة والأصل، وهذا هو الذي يحدث في الانقسام الميتوزي لمضاعفة عدد الخلايا الجنسية في الخصية والمبيض، فالخلية الجنسية تنقسم إلى خليتين (الصورة) تكون صورة طبق الأصل من الخلية الجنسية (الأصل). أما المعنى الثاني للتصوير فيدل على احتمالية حدوث تغيير في الصورة عن الأصل حتى ولو كان هذا التغيير في الاتجاه فقط، كما يحدث لصورة الإنسان في المرآة أو في الصور الفوتوغرافية، وهذا التغيير في الصورة عن الأصل هو الذي يحدث في الانقسام الميوزي أثناء تكوين الأمشاج من الخلايا الجنسية في الخصية أو المبيض، فالأمشاج (الصورة) لا تكون صورة طبق الأصل من الخلية الجنسية (الأصل)، ولكن تختلف عنها في عدد الكروموسومات وفي الصفات الوراثية (التحسين وراثي).

واستعمال التصوير (التمثيل) بهذين المعنيين معروف في لغة العرب، فكلمة التصوير مأخوذة من المماثلة أو المشابهة، والمماثَلةُ قد تكون على الإطلاق، فإذا قلت هذا الشيء مثل هذا الشيء فمعناه أنّه يَسُدُّ مَسَدَّه، وإذا قيل: هو مثلُه في كذا فهو مُساوٍ له في جِهةٍ دونَ جِهةٍ. فالتصوير قد يراد به مطابقة الأصل فيكون بمعنى النسخ والتساوي، كما أن التصوير قد يراد به الاختلاف عن الأصل، فيتفق معه في شيء ويختلف معه في أشياء. فالذي ينظر إلى صورته في المرآة يقول هذه صورتي ولا يستطيع أن يقول هذه نسختي (لماذا)؟؛ لأن صورته في المرآة مختلفة عنه في الاتجاه، فاليد اليمين تصير شمال والشمال تصير يمين. وأيضًا الذي ينظر إلى ولده يقول هو صورة مني أو من أمه، ولا يستطيع أن يقول أنه نسخة منه أو من أمه، وذلك لوقوع تحسين في صفات الولد الوراثية بحيث يختلف عن أبيه وأمه بقليل أو بكثير. وإذا بحثنا في الانجليزية عن كلمة مساوية للتصوير تكون أفضل من كلمة النسخ (Copy = Transcript) بحيث تشير إلى إيجاد صورة لشيء ما بالتصوير، كما تشير إلى المماثلة الكاملة أو الجزئية بين شيئين كما أنها تعني التمثيل لشيء برمز كأنك تنظر إليه، فسنجد كلمة (Image) وترجمتها التصوير، وتعني في الإنجليزية:

a. Creating a film by scanning or photographing an object

وهذه الجملة تعنى إنشاء فيلم بالتفرس أو التصوير الفوتوغرافي لشيء وتحويله إلى مجموعة من النقاط.

b. to symbolize and to present a lifelike image of something

وهذه الجملة تعنى التمثيل لشيء برمز كأنك تنظر إليه

c. one that closely or exactly resembles another

وهذه الجملة تعنى المماثلة الكاملة أو الجزئية بين شيئين

وصف القرآن والسنة لخلق وتصوير الأمشاج من الخلايا الجنسية (الميوزي والميتوزي)

يتم خلق وتصوير الأمشاج من الخلايا الجنسية في الخصية (Spermatogonium) والمبيض (Oogonium) على مرحلتين: الانقسام الميتوزي (التصوير المماثل للأصل)، والانقسام الميوزي (التصوير التحسيني = تحسين النسل).

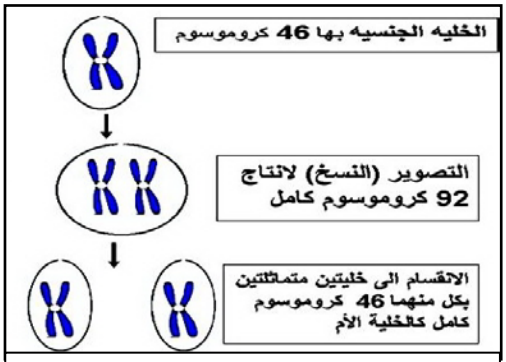

(صورة 10: الانقسام الميتوزي)

1. وصف الانقسام الميتوزى = (التصوير المماثل للأصل)

الهدف منه زيادة عدد الخلايا الجنسية في الخصية والمبيض وتكوين مخزون للمستقبل بالإضافة إلى تكوين الخلايا المشيجية الأولية المسؤولة عن إنتاج الأمشاج فيما بعد. وفيه يحدث تضاعف (تصوير) لكل كروموسوم في الخلية الجنسية إلى كروموسومين متماثلين، بحيث تتضاعف 46 كروموسوم إلى 92، ثم تنقسم الخلية الجنسية إلى خليتين متماثلتين مع بعضهما البعض ومع الخلية الأم (صورة طبق الأصل)، وبكل منهما 46 كروموسوم (صورة 10).

* آلية تصوير (نسخ أو تضاعف) الحمض النووي (صورة 11)

حتى يحدث تصوير (تضاعف) لجزيء الحمض النووي، ينبغي توفر كميات كافية من النيوكليوتيدات الأربعة التي تدخل في تركيبة (A،G، C، T)، بالإضافة إلى إنزيم التضاعف (إنزيم بلمرة DNA)، وبعض الإنزيمات والبروتينات الأخرى اللازمة لإتمام العملية على المراحل الآتية: تنفصل سلسلتا جزيء الحمض النووي بعضها عن بعض، فتتحول إلى سلاسل أحادية. ثم يرتبط إنزيم التضاعف بالسلسلة الأحادية، ويقوم بوضع النيوكليوتيدات الواحدة تلو الأخرى بشكل متمم بحيث يتم وضع نيوكليوتيد T مقابل نيوكليوتيد A، ونيوكليوتيد G مقابل نيوكليوتيد C، وتستمر هذه العملية بتحرك إنزيم التضاعف من نقطة البدء حتى نهاية السلسلة. وينتج من هذه العملية جزيئان كاملان من الحمض النووي، يحتوي كل منهما على سلسلة قديمة وأخرى جديدة، والجزيئان الجديدان يمثلان صورة طبق الأصل من القديم.

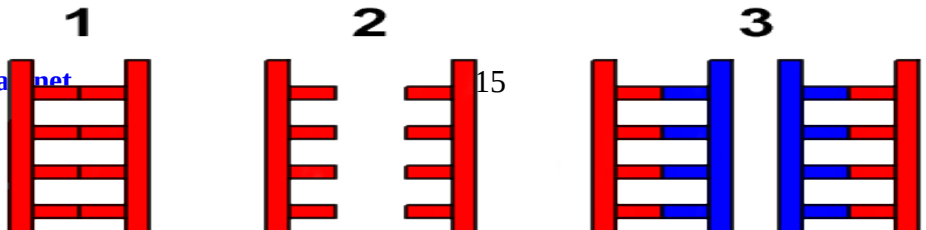

الصورة

(صورة 11: آلية تصوير أو نسخ الحمض النووي)

كلمة التصوير كافية لوصف تضاعف الحمض النووي, فهي بمعنى التخطيط والتشكيل, وهو ما حدث من أجل إنشاء نسخة جديدة من الحمض النووي, كما أنها تدل على المشابهة, وبالفعل النسخ المنتجة تمثل صورة مماثلة للأصل.

وصف الانقسام الميتوزي **(Mitosis)** في القرآن والسنة

* لوصف هذا الانقسام في القرآن والسنة نحتاج إلى الكلمات الآتية: الخلق لوصف الايجاد والزيادة في عدد الخلايا (خلية جنسية تتحول إلى خليتين)، والتصوير لوصف نسخ المادة الوراثية في الخلية الأم إلى الخلايا الجديدة بصورة مماثلة (تصوير بدون تحسين = مماثلة الصورة للأصل)، وحرف العطف (ثم) لوصف الزمن بين الخلق والتصوير بالتراخي، حيث إن الخلية لا تستطيع الانقسام والنسخ (التصوير) حتى تدخل في ما يسمى بمرحلة الإعداد للانقسام (التزود بالزاد)، وأخيرا يكون سياق النص دال على أن الخلق والتصوير حدث في الأصلاب أثناء تكون الأمشاج.

* هذه المواصفات تجتمع في قول الله: (وَلَقَدْ **خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ** ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ) 11 الأعراف.

*** وهذا النوع من التصوير حدث قبل زواج آدم من حواء أي في الأصلاب, ولهذا قال السلف الخلق لآدم والتصوير للذرية, لأن به إيجاد أمشاج الذرية في الأصلاب.**

* الدلالة العلمية لتقديم الخلق على التصوير واستخدام حرف العطف ثم في (وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ):

تنقسم دورة الخلية في الانقسام الميتوزي إلى مرحلتين (صورة 15): مرحلة انقسام الخلية أو فترة الخلق (M) ويحدث فيها انقسام للخلية إلى خليتان كل منهما تماثل الخلية الأم، والمرحلة البينية = **Interphase**، أو الفترة بين كل انقسامين وتقسم إلى ثلاث فترات: الأولى: تعرف باسم "G1" أو فترة التراخي قبل الانقسام التالي، وهي بعد الانقسام وقبل فترة التركيب أو النسخ "S" ، وتعتبر فترة نمو بالإضافة إلى تخزين عددا من المواد الكيميائية التي تنشط أو تمنع فترة التركيب، فتحدد ما إذا كانت الخلية سوف تنقسم أم لا. الثانية: فترة التركيب أو النسخ (التصوير)"S" وفيها تحدث مضاعفة للحمض النووي، حيث يحدث تصوير (نسخ) كل كروموسوم في الخلية ليعطي كروموسوم مماثل له. ومن المهم أن ندرك أن الحمض النووي في المرحلة G1 يظل على الحالة التي خرج بها من فترة الخلق (M)فلا يحدث تصوير في المرحلةG1 . الثالثة: الفترة"G2" وتقع بين فترة التركيب أو النسخ"S" وقبل بداية الانقسام ويتم فيها تشكيل الخيوط المغزلية التي لها أهمية في انقسام الخلية. مما سبق يتبين أن الفترة (G1) لا يحدث فيها خلق أو تصوير فهي فترة تراخي بين الخلق (M) والتصوير "S" ولهذا فإن الله استخدم (ثم) للتعبير عنها بين فترتي الخلق والتصوير(صورة 12). وتقديم الخلق على التصوير إشارة إلى أن الخلية الجنسية خُلقت في آدم وحواء قبل تصوير أمشاج الذرية، ولذا قال البعض أن الواو في (ولقد خلقناكم) هي واو الابتداء، أي ابتداء الخلق، فما وجدنا إلا بإيجاد وتصوير آدم.

(و لقد خلقناكم (M) ثم (G_1) صورناكم (S)) 11 الأعراف.

ومما يدل على أن التصوير في (ولقد خلقناكم ثم صورناكم)، جاء بمعنى المماثلة أن الله قال للملائكة (اسجدوا لآدم) ولم يقل (اسجدوا لبنى آدم)، فالميتوزي يعتبر استنساخ للخلية الجنسية لتعطي خلايا مشيجية مماثلة، ومعلوم أن استنساخ هذه الخلايا المشيجية قبل مرحلة الميوزي لا يعطى إلا صاحب الخلية، أي أن الذرية وجدت في صلب آدم قبل السجود كتقدير وراثي، ولذا كان الأمر بالسجود لآدم فقط، وهنا تتجلى عبقرية القرطبي حين قال (بدأ الله خلقكم أيها الناس بآدم وحواء وخلق الذرية منهما في الأصلاب بخلق الأمشاج التي تحمل التقدير لخلقكم وتصويركم في الأرحام ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم....انتهى). فالله ابتدأ خلقنا بخلق آدم ثم ابتدأ تصويرنا بتصوير آدم، فلا يصح خلقنا إلا بخلق الخلايا الجنسية في صلب آدم ولا يصح تصويرنا إلا بعد تصوير الحمض النووي لآدم في خلاياه الجسدية والجنسية.

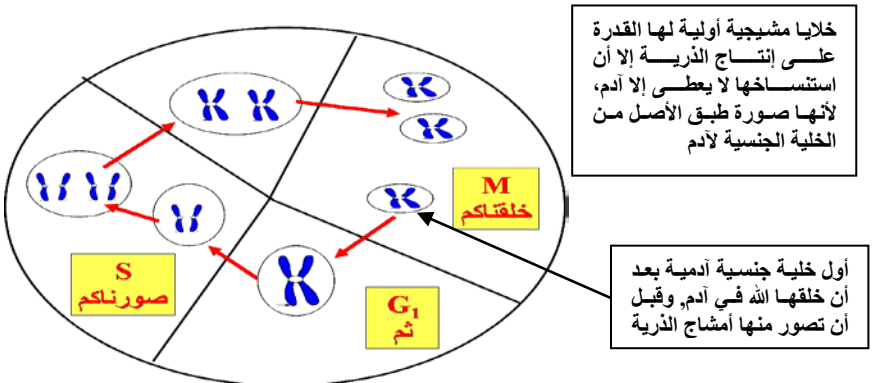

(صورة 12: الخلق ثم التصوير هو أدق وصف للانقسام الميتوزي)

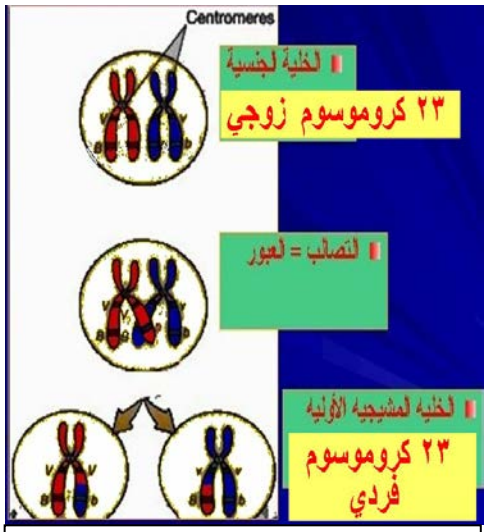

(صورة 13. الإنقسام الميوزى**)**

ثانيا: وصف الانقسام الاختزالي أو الميوزي **(Meiosis)** = التصوير التحسيني

يؤدي هذا الانقسام إلى اختزال عدد 46 كروموسوم فردى (23 زوج) في الخلية الجنسية إلى نصف العدد في الأمشاج، وفيه تنقسم الخلية الجنسية إلى خليتين كل منهما تحوى 23 كروموسوم فردى كامل وتسمى الخلية المشيجية الأولية. وأثناء هذا الانقسام يحدث زواج مع تبادل لبعض الجينات بين كل كروموسومين من الكروموسومات الزوجية المتماثلة في الشكل وهذا يعرف باسم التصالب (كيازما) أو العبور (صورة 13)، والذي يؤدي إلى تحسين النسل حيث ينشأ عنه اختلاف في صفات الأمشاج الجينية عن بعضها البعض، وعن الأصل، بحيث لا يشابه الأبناء الآباء. وناتج هذا الانقسام خليتين مختلفتين عن الخلية الأم، أي أنه نسخ غير مساوي للأصل (تماثل غير كامل بين الأصل والصورة).

* وصف الانقسام الميوزي (التصوير التحسيني) في القرآن والسنة

لوصف هذا الانقسام في القرآن والسنة نحتاج إلى الكلمات الآتية: الخلق لوصف الإيجاد والزيادة في عدد الخلايا (خليه واحده تتحول إلى خليتين)، والتصوير لوصف نسخ المادة الوراثية في الخلية الأم إلى الخلايا الجديدة، مع حدوث التصالب والتزاوج بين الكروموسومات وتبادل الجينات (التصاور بين الكروموسومات)، وناتج عملية التصوير والتصالب وهو التحسين الفوري في صور الأبناء، فنحتاج إلى (العطف بالفاء)، مع

وصف العلاقة بين الخلق والتصوير بالمصاحبة فنربط بينهما بحرف العطف (الواو). وأخيرا يكون سياق النص دال على أن الخلق والتصوير حدث في الأصلاب أثناء تكون الأمشاج.

* هذه المواصفات تجتمع في قول الله {هُوَ الَّذِي **خَلَقَكُمْ** فَمِنكُمْ كَافِرٌ ومِنكُم مُّؤْمِنٌ واللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ. خَلَقَ السَّمَاوَاتِ والأرض بِالْحَقِّ و**صَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ** وإِلَيْهِ الْمَصِيرُ} التغابن2, 3.

وفي الحديث الصحيح الموافق للآية (سجد وجهي للذي **خلقه وصوره فأحسن صورته**).

وفي حديث (سجد وجهي للذي خلقه **وصوره فأحسن صوره**)

وبالرجوع إلى لسان العرب نجد أن من معاني (أَحْسَنَ) التحسين، وعليه فالآية (وصوركم فأحسن صوركم) تصف تحسين صور الذرية بحيث لا تشابه الآباء، فالآية تخاطب الذرية ولا تخاطب آدم وحواء لسببين، الأول أن آدم وحواء لم يقدر عليهما الكفر عند خلقهما، وإنما الكفر يُقدر على الذرية من لحظة تقدير خلق أحدهما في الأصلاب، والثاني؛ لأن آدم وحواء هما أصل الذرية وليسا بصورتين يدخل عليهما التحسين، ومخاطبة الذرية بالتصوير يقتضي وجود أصل يتم التصوير منه وهو الخلايا الجنسية للآباء، فكأن الآية جاءت لتخبر أن الله عليم بكفر أحدكم أو إيمانه منذ تقدير خلقه كما هو عليم بصورته التي قدرها له عند خلقه في الأصلاب. وفي حديث (سجد وجهي للذي خلقه وصوره فأحسن صُورهُ) نلاحظ أن النبي صلى الله عليه وسلم جعل للوجه عدة صور وليست صورة واحدة، وذلك؛ لأن الصورة تدل على وجود أصل للوجه يصور منه وهو جينات الحمض النووي، والوجه لا يصور من جين واحد ولكن من عدة جينات، وحيث إن كل جين يمثل صورة لجزء معين من الوجه، فبالتالي يكون للوجه عدة صور وليس صورة واحدة، وهذا هو ما أكدته الأبحاث العلمية الحديثة من أن للوجه خمسة جينات على الأقل بالإضافة لآلاف القطع على الحمض النووي التي تحكم طريقة تشكل الوجه. وكلمة التصوير في الآية لا تصف فقط نسخ الذرية من الآباء ولكن تصف أيضًا آلية حدوث التصالب بين الكروموسومات بدقة لم يصل إليها العلم إلا بعد عام 2004، فيقول العلماء عن خطوات التصالب (صورة 14):

1. الميل بين أطراف كل كروموسومين من الكروموسومات الزوجية المتماثلة في الشكل
2. التعانق بين كل كروموسومين من الكروموسومات الزوجية المتماثلة في الشكل
3. تكثف بعض من أجزاء الكروموسومات المتعانقة ليتكون عليها عقد (loop = Knob) قريبة الشبه من شلة الخيط (Slooped skeins) المتصلة بخيط رفيع أو شبيهة بالرأس على عنق.

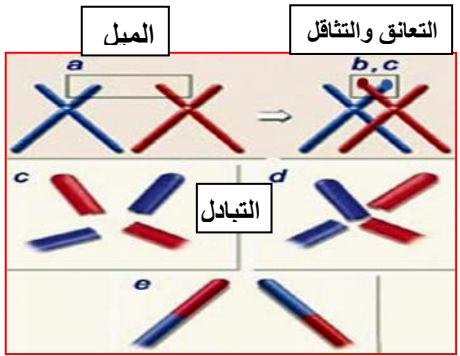

4. تثاقل العقد على أطراف الكروموسومات المتعانقة (أو تثاقل الرأس على العنق إذا مالت جانبا)، وهذا التثاقل عند أطراف الكروموسومات المتعانقة يؤدى إلى حدوث توتر عند العنق لا يزول إلا بحدوث تشققات عند العنق (Cracks) يتبعها دخول إنزيم قاطع يقطع أطراف الكروموسومات المتعانقة إلى قطع صغيره مع تبادل القطع بين الكروموسومات المتعانقة لكي ينشأ تغيير في صفات الأمشاج الجينية عن الأصل. (صوره 14. خطوات التصالب = التصاور)

لغويا لا توجد كلمه تصف أحداث عملية التصالب ككلمة (صُوَرَكُم) التي تأخذ عدة معاني في لغة العرب يكمل بعضها بعضا من أجل وصف آلية التصالب وصفا دقيقا لا يقدر عليه البشر. فالصورة مشتقه من الصَّوَرُ وهو الميل وذلك ما نجده في معاجم اللغة العربية كلسان العرب وتاج العروس: (الصَّوَرُ بالتحريك: المَيَل وصارَ الشيءَ صَوْرًا: أَماله فمال وخص بعضهم به إِمالة العنق والرجلُ يَصُور عُنُقَهُ إِلى الشيء إِذا مال نحوه بعنقه. وفي حديث عكرمة: حَمَلَة العَرْشِ كلُّهم صُورٌ هو جمع أَصْوَر وهو المائل العنق لثقل حِمْلِهِ. وصارَ الشَّيْءَ يَصُورُه صَوْرًا: قَطَعَه وفَصَّلَه صُورَةً صُورَةً وفي التنزيل (فَصُرْهُنَّ إِلَيْك) قال بعضُهم: صُرْهُنّ: وجههن وصِرْهُنّ: قَطِّعْهُنّ وشَقِّقْهُنّ). ومجموع هذه المعاني هو ملخص آلية التصالب الذي يحدث فيه ميل وتعانق للكروموسومات مع تشقق وتقطع لبعض أجزاءها لثقل الحمل على بعض أجزائها، ثم التحسين بتبادل الأجزاء المتقطعة بين الكروموسومات المتعانقة. ونلاحظ هنا أن التصوير جاء بالمعنى الثاني في لغة العرب وهو الاختلاف (حدوث تغيير في الصورة عن الأصل)، وقد عرفنا سابقا أن التصوير في اللغة العربية قد يراد به مطابقة الأصل فيكون بمعنى النسخ والتساوي، كما أنه قد يراد به الاختلاف عن الأصل.

* تحقيق الهدف الثاني للبحث:

وصف الأُسس العلمية لاختبار البصمة الوراثية في القرآن والسنة

* البصمة الوراثية من الناحية العلمية

البصمة الوراثية هي الحمض النووي (DNA) أو المادة الوراثية الموجودة في نواة جميع خلايا الكائنات الحية، وهي التي تجعلني وتجعلك مختلفًا عن الآخر،؛ لأنها تعطى جسدي وجسدك صفاته الوراثية الخاصة به (كاللون أو الطول)، وتحدد وظيفة كل خلية من خلايانا.

ولم يُعرف الحمض النووي كبصمة وراثية مميزة لكل فرد إلا عام 1984 حينما نشر د. "آليك جيفريز" عالم الوراثة بجامعة "ليستر" بلندن بحثًا أوضح فيه أن المادة الوراثية قد تتكرر عدة مرات، وتعيد نفسها في تتابعات

عشوائية غير مفهومة، ثم اتضح له أن هذه التتابعات مميِّزة لكل فرد، ولا يمكن أن تتشابه بين اثنين إلا في حالات التوائم المتماثلة فقط، وأطلق على هذه التتابعات اسم "البصمة الوراثية للإنسان"، وعرفت على أنها "وسيلة من وسائل التعرف على الشخص عن طريق مقارنة مقاطع الحمض النووي.

قام د."آليك" أيضًا بدراسة على إحدى العائلات يختبر فيها توريث هذه البصمة، وتبين له أن الأبناء يحملون خطوطًا مميزة يجيء نصفها من الأم (23 كروموسوم)، والنصف الآخر من الأب (23 كروموسوم)، وهي مع بساطتها تختلف من شخص لآخر. وتبين أنه يمكن فصل كروموسومات الأم عن الأب بحيث يمكن استخدام كروموسومات الأب في اختبارات النسب (إثبات أو نفي البنوة)، وذلك بمقارنة كروموسومات الأب المفصولة من خلايا الابن بكروموسومات أي رجل لمعرفة ما إذا كان أبوه أم لا، وكذا يمكن مقارنة كروموسومات الأم المفصولة من خلايا الابن بكروموسومات أي امرأة لمعرفة ما إذا كانت أمه أم لا.

ويكفي لاختبار البصمة الوراثية نقطة دم صغيرة؛ أو شعرة، أو ما شابه ذلك، لذا فإن اللسان قد يكذب وبصمة الأصابع قد تزال بسهولة، ولكن بصمة الـ "(DNA)" يستحيل أن تكذب أو أن تزال من ورائك.

* واختصارا يمكن تحديد الأسس العلمية التي تقوم عليها البصمة الوراثية كالآتي:

1. لكل إنسان حمض نووي يحمل الصفات الوراثية الخاصة بجسده، وهو صورة مطابقة للجسد (بصمة الجسد البشرى)، وينتقل الحمض النووي من الآباء إلى الأبناء عبر الأمشاج، وبالتالي فكل أفراد الجنس البشرى يملكون الحمض النووي البشري.

2. يمكن فصل الحمض النووي من أي خلية واستخدامه كصورة حسنة تدل على أصلها (صاحب الصورة).

3. لكل نوع من الكائنات الحية البصمة الوراثية المميزة له عن سائر الكائنات الحية، فالإنسان غير الحيوان غير النبات غير الكائنات الدقيقة، وبالتالي يمكن التعرف على هوية أي خلية (بصمة النوع).

4. لا يمكن أن يتشابه الحمض النووي لفردين من نفس الجنس البشري وذلك لحدوث تحسين وراثي للحمض النووي في أثناء انتقاله من الآباء إلى الأبناء (البصمة الوراثية لكل فرد من أفراد النوع الواحد).

5. الحمض النووي لذرية بني آدم يعتبر بمثابة صورة مركبة للجسد، تتركب من نصفين أحدهما من الأب (23 كروموسوم في الحيوان المنوي) والآخر من الأم (23 كروموسوم في البويضة)، ويمكن فصل النصفين عن بعضهما، والتعرف على كروموسومات الأب والأم بسهولة (اختبار الأنساب أو البنوة).

* وصف الأُسس العلمية لاختبار البصمة الوراثية في القرآن والسنة

بعد أن سبق وبينت ذكر الحمض النووي في القرآن والسنة ودوره في نقل الصفات الوراثية من الآباء إلى الأبناء، نستطيع الآن أن نبين كيف سبق القرآن والسنة في توضيح الأسس العلمية الخمسة السابقة للبصمة الوراثية قبل أكثر من أربعة عشرة قرنا من الزمان، ونجدها مذكورة في آيات التصوير بترتيب آيات المصحف كالآتي:

1. (هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأرحام كَيْفَ يَشَاءُ) 6 آل عمران.
2. (وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ)11 الأعراف.
3. (اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأرض قَرَارًا والسَّمَاءَ بِنَاءً وصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ) 64 غافر.
4. (هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الأسماء الْحُسْنَى)24 الحشر.
5. (هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ ومِنْكُمْ مُؤْمِنٌ واللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ. خَلَقَ السَّمَاوَاتِ والأرض بِالْحَقِّ وصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وإِلَيْهِ الْمَصِيرُ) 2، 3 التغابن.
6. (الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ . فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ) 7، 8 الانفطار.

و إذا بدأنا بقول الله تعالى (هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأرحام كَيْفَ يَشَاءُ) 6 آل عمران، نجد النبي صلى الله عليه وسلم يفسره بأنه التصوير من النطفة الأمشاج بقوله (إذا مر بالنطفة اثنتان وأربعين ليلة بعث الله إليها ملكا فصورها وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها وعظامها) رواه مسلم.

وهنا بين صلى الله عليه وسلم أن هناك تصوير من النطفة قبل خلق الأعضاء وهو ما أسماه العلم الحديث نسخ الحمض النووي الموجود في النطفة وترجمته إلى أعضاء، فالحمض النووي يعمل كقالب تصب عليه الذرية، والاختلافات الواقعة بين البشر هي لاختلاف القالب الخاص بكل واحد.

فإذا سألنا عن والد الطفل المولود إذا كان مجهول النسب أو على نسبه نزاع، لأجاب صلى الله عليه وسلم بقوله (الولد لصاحب الفراش) رواه البخاري، أي للذي جامع في الفراش، أي للذي أتت من صلبه النطفة، لذا كان من اللازم أن نعرف من هو صاحب النطفة وكيف تكونت في صلبه، وكيف نستدل عليه باختبار البصمة الوراثية. فجاء المولى تبارك وتعالى في القرآن بكل الأسس العلمية لاختبار البصمة الوراثية وبدقة متناهية لا تكون إلا من رب عليم، وبلاغ من نبي لا ينطق عن الهوى. وهذه الأسس العلمية بترتيب آيات التصوير في المصحف كالآتي:

1. الأساس الأول:

لكل إنسان حمض نووي يحمل الصفات الوراثية الخاصة بجسده، وهو صورة مطابقة للجسد (بصمة الجسد البشرى)، وينتقل الحمض النووي من الآباء إلى الأبناء عبر الأمشاج، وبالتالي فكل أفراد الجنس البشري يملكون الحمض النووي البشري.

وهذا الأساس العلمي يوافق قول الله (وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ)11 الأعراف، وقد سبق وبينت أن التصوير في هذه الآية يتحدث عن الحمض النووي والتقدير الوراثي لآدم وحواء والذرية في الأصلاب، فبعد أن خلق الله جسد آدم خلقا كاملا (الصفة الشكلية) صار آدم هو الأصل الذي يتم أخذ صورة له، وقلت بأن هذه الصورة المطابقة لجسد آدم هي الحمض النووي الموجود بداخل خلاياه (الصفة الجينية).

كما أشرت إلى كيفية خلق وتصوير الذرية في صلب آدم وحواء من خلال تحول الخلية الجنسية إلى خلايا مشيجية أولية من خلال الانقسام الميتوزي، فيكون معنى الآية أن الله قد ابتدأ خلقنا بخلق آدم ثم ابتدأ تصويرنا بتصوير آدم، فلا يصح خلقنا إلا بخلق آدم؛ لأننا خلقنا كخلايا جنسية في صلب آدم ولا يصح تصويرنا إلا بتصوير آدم؛ لأن الله صور آدم على الحمض النووي الخاص به في الخلايا الجسدية والجنسية، ثم صورنا من الحمض النووي للخلايا الجنسية، وكل ذلك قبل سجود الملائكة لآدم. والحاصل أن آدم وذريته صار لهم نفس الحمض النووي البشري (بصمة الجسد البشري).

2. الأساس الثاني:

يمكن فصل الحمض النووي من أي خلية واستخدامه كصورة حسنة تدل على أصلها (صاحب الصورة).

ونجد وصف الحمض النووي بالصورة الحسنة في قوله تعالى (اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأرض قَرَارًا والسَّمَاءَ بِنَاءً وصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ) 64 غافر.

عندما بحثت عن قول للنبي أو قول لصحابي في تفسير هذه الآية فلم أجد، وعندما ننظر إلى أقوال المفسرين نجدها تقريبا قد اجتمعت على أن التصوير هنا لوصف شكل الجسد حيث يقولون خلقكم فأحسن خلقكم أو خلقكم في أحسن صورة، وقال الزجاج: خلقكم أحسن الحيوان كله. وتفسير الآية بهذه الكيفية يجعلها تكرار بلا فائدة، والقرآن لا تكرار فيه إلا بفائدة عظيمة، وما يجعلني أقول أنه تكرار هو تفسير السلف لقول الله {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ }التين4، قال المفسرون كالطبري نقلا عن ابن عباس ومجاهد في

أعدل خلق وقال قتادة والكلبي في أحسن صورة، وعن ابن عباس أنه قال أيضًا خلق كل شيء منكبا على وجهه إلا الإنسان (انتهى).

وتفسير حسن التصوير بشكل الجسد فقط يخالف ما شاهدناه من فهم النبي والصحابة لآية (وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ) وآية (هو الذي يصوركم في الأرحام)، حيث رأينا كيف أن من معاني التصوير انتقال الصفات الوراثية من الآباء إلى الذرية عبر الأمشاج، كما أنه يخالف الواقع الذي نحياه من أن الأشكال منها الحسن والقبيح، فليس من الإنصاف للجميل أن يقال للقبيح أنه حسن الصورة، ولكن الإنصاف أن يقال أن القبيح حسن التقويم إذا قورن بأي كائن آخر غير الإنسان فهو أحسن منه تقويما. ولذا أرى والله أعلم أن نحمل فهم هذه الآية على فهمنا لآية (وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ) وآية (هو الذي يصوركم في الأرحام)، فيكون المقصود من (وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ) 64 غافر، هو وصف العلاقة بين الجسد (الأصل) والحمض النووي (الصورة) بأنه تصوير حسن، فالحمض النووي يطلق عليه صورة حسنة؛ لأنها تطابق صاحبها وتدل عليه، فالصورة مساوية للخلقة (خلقناكم ثم صورناكم)، فجاءت الصورة حسنة أي دالة على الخلقة.

3. الأساس الثالث:

لكل نوع من الكائنات الحية البصمة الوراثية المميزة له عن سائر الكائنات الحية، فالإنسان غير الحيوان غير النبات غير الكائنات الدقيقة، وبالتالي يمكن التعرف على هوية أي خلية (بصمة النوع).

وهذا المعنى نجده في قول الله تعالى (هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الأسماء الْحُسْنَى)24 الحشر، فالله خالق كل المخلوقات الحية منها والجمادات، وهو الذي جعل لكل كائن من الكائنات الحية الصفات الشكلية المميزة، وجعل لها الحمض النووي المميز (الصورة المميزة). فمع أن الحمض النووي يتركب من عدة مركبات كيميائية ثابتة في كل الكائنات الحية، إلا أن لها تخطيط وتشكيل (ترتيب) معين يختلف من كائن إلى آخر، بحيث لا نجد كائنين لهما نفس الحمض النووي، بل لا نجد فردين من نفس النوع لهما نفس الحمض النووي، فكل مخلوق له حمض نووي خاص كما أن له صورة شكلية خاصة، ولذا يطلق على الله المصور، كما يقول لسان العرب (المصور هو الذي صَوَّر جميع الموجودات ورتبها فأَعطى كل شيء منها صورة خاصة يتميز بها على كثرتها).

4. الأساس الرابع:

لا يمكن أن يتشابه الحمض النووي لفردين من نفس الجنس البشرى وذلك لحدوث تحسين وراثي للحمض النووي في أثناء انتقاله من الآباء إلى الأبناء (البصمة الوراثية لكل فرد من أفراد النوع الواحد).

وهذه الحقيقة العلمية نجدها في قول الله تعالى (هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ. خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأرض بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ) 2، 3 التغابن.

وهذه الآية تربط بين الخلق على اختلاف أنواعهم وبين التصوير كآلية تصف كيفية التحسين الوراثي المسؤول عن اختلاف الصفات الوراثية بين أفراد النوع الواحد، وذلك من خلال الانقسام الاختزالي (الميوزي) أو التصوير التحسيني، كما سبق وبينت في أثناء وصف الانقسام الميوزي في القرآن والسنة (ص 12، 13 من هذا البحث).

5. الأساس الخامس:

الحمض النووي لذرية بني آدم يعتبر بمثابة صورة مركبة للجسد، تتركب من نصفين أحدهما من الأب (23 كروموسوم في الحيوان المنوي) والآخر من الأم (23 كروموسوم في البويضة)، ويمكن فصل النصفين عن بعضهما، والتعرف على كروموسومات الأب والأم بسهولة (اختبار البنوة).

وقد وصف الله البصمة الوراثية بالصورة المركبة في قوله تعالى (فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ) 8 الانفطار.

والإنسان لم تتفرق أعضائه قط في الرحم فاجتمعت، بل خلقه الله من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة، ولكن الذي كان متفرقا فركبه الله هو الأمشاج التي كانت متفرقة فجمعها الله معا في النطفة الأمشاج. وهذه الصورة المركبة جعلها الله غاية في الحسن والدقة فهي بكاملها تدل على صاحبها دلالة قطعية لا تحتمل الشك، وهي بنصفيها المتراكبين تدل على الأصل الذي أخذت منه الصورة وهو الأبوين (صورة 15)، فالحمض النووي البشري يتكون من 46 كروموسوم وهو العدد الذي يحتويه جميع خلايا الجسم ما عدا الأمشاج التي يحتوي كل منهما على 23 كروموسوم فقط، وعندما تتلاقى الأمشاج الذكرية والأنثوية يتكون الحمض النووي المركب (البصمة الوراثية).

(صورة 15: الحمض النووي كصورة مركبة يدل على صاحب الفراش)

وحيث إنه يمكن فصل كروموسومات الأب عن كروموسومات الأم في الحمض النووي للابن، وبناء عليه فإن إثبات النسب يأتي من خلال تحليل البصمة الجينية للابن وكذلك الأب والأم إذا كانت موجودة، ولكن ليس ضروريا وجود الأم، وفي هذه الحالة يكون هناك شراكة بنسبة 50 % بين الأب والابن في الجينات وهذا يعني إثبات البنوة، وفي حالة عدم توافر هذه الشراكة يمكن استبعاد نسب الابن إلى الأب، وبناء عليه يمكن التأكد من صحة النسب أو غيره. فالبصمة الوراثية تعتبر رؤية غير مباشرة لأصحاب الفراش دون كشف للعورات، فإذا دخلت نطفة الرجل إلى نطفة المرأة فلا يمكن أن تغادرها إذا قدر الله منها الولد، وبالتالي فإنه يمكن إمساك نطفة الوالد والتعرف عليها بداخل أي خلية من خلايا الولد، وبالتالي يكون نسب الولد لصاحب النطفة أي صاحب الفراش، وصدق من لا ينطق عن الهوى (الولد لصاحب الفراش) البخاري، أي للذي جامع في الفراش وترك نطفته التي كان منها الولد.

فمعلوم أن الحمض النووي في كل خلية من خلايا الجنين يكون مماثل للحمض النووي في النطفة الأمشاج، لذا فإن أي خلية تُأخذ من الولد فإننا نرى فيها الجماع الثاني الذي حدث في النطفة الأمشاج والذي يدل على النسب الحقيقي للولد بنسبة أكيدة تصل إلى 100 % عند استعمال البصمة الوراثية، حيث يمكن فصل كروموسومات الأب عن كروموسومات الأم، ثم مقارنة كروموسومات الأب الآتية من الابن مع كروموسومات الأب المشتبه فيه فيما يعرف باختبار البنوة (Paternity test). وقد استغل العلم هذه الحقائق عند وجود خلاف حول النسب الصحيح للولد، فإذا نظرنا إلى الصفات الشكلية فتلك هي القيافة وإذا نظرنا إلى الحمض النووي فتلك هي البصمة الوراثية، فالقيافة والبصمة الوراثية عبارة عن وجهين لعملة واحدة، إذ أن لكل صفة شكلية تخلق في الجنين صفة جينية مماثلة على الحمض النووي للنطفة الأمشاج.

* تحقيق الهدف الثالث للبحث:

إثبات أن نسب الذرية البشرية إلى آدم (بني آدم) يكون بالبصمة الوراثية:

هناك ملاحظة غريبة لمن يتدبر القرآن وهي أن نسب البشرية لآدم في قوله تعالى (بني آدم) مذكور في القرآن سبع مرات، منها خمسة في الأعراف، واحدة في الإسراء وآخرها في يس، ولم تذكر قبل سورة الأعراف ولو مرة

واحدة، وهي بترتيب المصحف كالآتي: {يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عليكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وريشًا}الأعراف26، {يَا بَنِي آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ}الأعراف27، 3. {يَا بَنِي آدَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ}الأعراف31، {يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عليكُمْ آيَاتِي }الأعراف35، {وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ}الأعراف172، {وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ والْبَحْرِ}الإسراء70، {أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ}يس60.

والسؤال هنا لماذا جاءت أغلب آيات (بني آدم) في سورة الأعراف؟ وليس قبلها. ألسنا بنو آدم منذ أول آية في القرآن، ألم نكن بنو آدم عندما قال الله (يا أيها الناس) في البقرة والنساء، ألم نكن بنو آدم عندما قال الله (يا أيها الذين آمنوا) في البقرة والنساء وآل عمران؟. والجواب إن صح مني الفهم أن إثبات نسب الذرية إلى آدم (بني آدم) يكون بالبصمة الوراثية، فالله لم ينسب الذرية لآدم فيقول (يا بني آدم) 11 الأعراف، ولم يحكي عن أخذ الذرية من الأصلاب (وإذا أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم) 172 الأعراف، إلا بعد أن بين كيفية خلق وتصوير الذرية في الأصلاب (ولقد خلقناكم ثم صورناكم) 11 الأعراف، ثم في الأرحام (هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء) 6 آل عمران.

فقوله (بني آدم) يقيم النسب بين آدم والبشرية، ولما كان النسب لا يقوم إلا على أساس الصفات الوراثية المنتقلة من الآباء إلى الأبناء عبر الأمشاج المتكونة في الأصلاب والتي تترجم في الأرحام إلى أعضاء، لم تأتى (بني آدم) في القرآن إلا بعد أن وضع الله قانون توارث الصفات في الأصلاب والأرحام. وبدأ الله بالأرحام فقال (هو الذي يصوركم في الأرحام) 3 آل عمران، فالإنسان يأخذ صفاته الوراثية من النطفة الأمشاج في الأرحام، فإذا سألنا عن صاحب النطفة الأمشاج الذي يؤول إليه نسب الذرية، فالإجابة أنهم ينتسبون لمن تكونت نطفهم في صلبه، لذا كانت الآية التالية التي تتحدث عن تصوير الأصلاب في سورة الأعراف، حيث وضع الله قانون توارث الصفات من آدم إلى ذريته في الأصلاب (ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم) 11 الأعراف، فالصفات الوراثية للنطفة الأمشاج تتحدد بصفات الأمشاج المتكونة من الخلايا الجنسية في الأصلاب. وبعد أن بين الله كيف ننتسب إلى آدم بالحمض النووي (البصمة الوراثية) الناقل للصفات الوراثية عبر الأمشاج، جاءت أول آية في القرآن تنسب الذرية إلى آدم {يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عليكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وريشًا}الأعراف26، لنعلم أن علاقة النسب بين آدم والذرية علاقة وراثية تعتمد على البصمة الوراثية.

ولعل البعض يقول إذا كان هذا شان آدم وبنيه، فما بال النسب بين أفراد ذرية آدم إلى قيام الساعة، فأقول وبالله التوفيق أن ما يجري على آدم يجري على بنيه، ودليلي أن الله لم يذكر أخذ الذرية من صلب آدم ومن أصلاب ذريته إلى قيام الساعة إلا في سورة الأعراف {وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ}الأعراف172، وذلك بعد أن ذكر الله في أول الأعراف أنه خلق الذرية وصورها في صلب آدم (ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم)، فصارت كل ذرية آدم مطمورة في صلبه وصلب حواء على هيئة خلايا جنسية ومشيجية بها التقدير الوراثي لكل ذريته إلى قيام الساعة، فربط الله بين أخذ الذرية وبين نسبهم إلى آدم وحواء (بني آدم) على أساس الرابط الوراثي، فالله لم يأخذ من ظهر آدم فقط بل من كل الجنس الآدمي ولذا قال (أخذ من بني آدم)، ودل على كامل الجنس الجمع في كلمة (ظهورهم) فلو كان الأخذ من ظهر آدم فقط لقال (من ظهره)، فكأن الله أخذ من ظهر آدم وحواء أبنائهم، ثم أخذ من ظهور الأبناء ذريتهم، ومن ظهور كل ذرية ذرياتهم إلى قيام الساعة، فاشتمل الأخذ على كل الأجيال المتعاقبة من لدن آدم إلى قيام الساعة، ثم أشهدهم على أنفسهم (ألست بربكم). وحتما هذا الأخذ لا توجد به شبهة اختلاط أنساب عند الله، فهو يعرف نسب ابن الزنى وكل مجهول النسب وكل من أتى الدنيا من رحم مؤجرة، يعرفهم بأمشاجهم التي أخذها من ظهور الآباء وجمعها لتعطي الأبناء بنسب صحيح غير مشكوك فيه، فكل من حضر ميثاق الذر حضره بنسبه إلى أبيه الصحيح وأمه الصحيحة أصحاب الأمشاج الحقيقية لكل فرد من إفراد ميثاق الذر.

ويشهد لهذا التفسير السابق حديث (إنَّ اللهَ عز وجل خلق آدمَ، ثم مسح ظهرَه بيمينِه، فاستخرج منه ذريةً، فقال: خلقتُ هؤلاءِ للجنةِ وبعمل أهلِ الجنةِ يعملون، ثم مسح ظهرَه فاستخرج منه ذريةً، فقال: خلقتُ هؤلاءِ للنارِ وبعمل أهلِ النارِ يعملون) رواه أبو داود وصححه الألباني، وحديث (لما خلقَ اللَّهُ آدمَ مسحَ ظَهرَه فسقطَ من ظَهرِه كلُّ نسمةٍ هوَ خالقُها من ذرِّيَّتِه إلى يومِ القيامةِ وجعلَ بينَ عيني كلِّ إنسانٍ منهم وبيصًا من نورٍ ثمَّ عرضَهم علَى آدمَ) رواه الترمذي وصححه الألباني. قال الشعراوي في تفسيره (الآخذ هو الله، والمأخوذ منه بنو آدم، والشيء المأخوذ هو ذريتهم، هذه هي العناصر. وبنو آدم هم أولاد آدم من لدنه إلى أن تقوم الساعة، وهنا اتحد المأخوذ والمأخوذ منه، ولابد أن نرى تصريفًا في هذا النص؛؛ لأنه يشترط أن يكون المأخوذ منه كلًا، والمأخوذ بعضه، لكننا هنا نجد المأخوذ هو عين المأخوذ منه، وأزال رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا الإشكال فقال "لما خلق الله آدم مسح ظهره، فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها إلى يوم القيامة".....انتهى).

* تحقيق الهدف الرابع للبحث:

تعريف الفراش من الناحية العلمية وتوضيح علاقته بالبصمة الوراثية وبالقيافة:

إثبات النسب أو نفيه في الإسلام له طرقه الشرعية المعلومة كالفراش (زواج قائم) والقيافة (مقارنة الشكل) والاستلحاق (بإقرار المستلحق) والبينة (بشهادة العدول) والقرعة (أضعف الطرق وتستخدم عند غياب البينة). ودليل الفراش أحد أهم الطرق الشرعية لإثبات النسب في الإسلام، وهو مُجمع عليه بين الفقهاء لقول النبي صلى الله عليه وسلم (الولد للفراش) البخاري. ويُفترض من الناحية العلمية أن يكون الفراش بمعنى النكاح بين رجل وامرأة تلاقت أمشاجهما أثناء هذا النكاح فنشأ بينهما الولد. وإذا كان الجماع الأول بين الرجل والمرأة في الفراش ينتهي بانتهاء الشهوة، فإن كل جماع أدى إلى الولد لا يمكن أن ينفض أبدًا أو أن يُجهل أطرافه وذلك؛ لأن هناك اجتماع ثانٍ لا ينفض أبدًا يتم بين نطفة الرجل ونطفة المرأة ويؤدى إلى تكوين النطفة الأمشاج التي منها الولد (صورة 16).

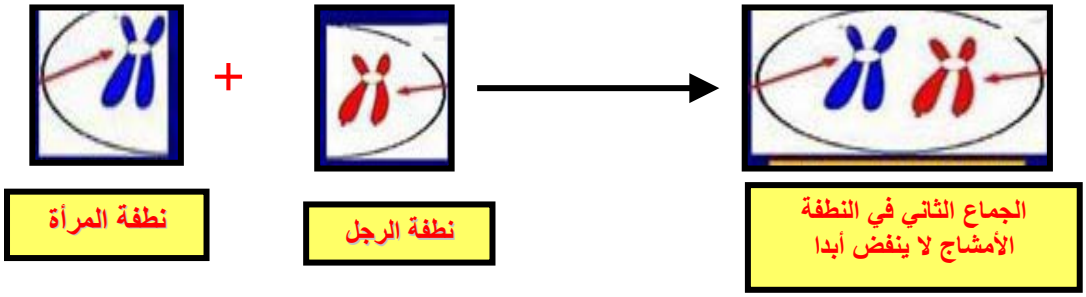

(صورة 16: الجماع الثاني بين الأمشاج دليل على الجماع الأول بين الرجل والمرأة)

فالجماع الثاني بين الأمشاج يبقى شاهدًا للأبد على الجماع الأول بين الرجل والمرأة في الفراش، ولذا ينبغي أن يُستدل به عند الخلاف على نسب الولد الصحيح، وهذا الاستدلال له طريقتين: الأولى قديمة استخدمها النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة وأقرها جمهور أهل العلم وهي القيافة. أما الثانية فهي حديثة وتسمى بقيافة العصر أو البصمة الوراثية، وهي كما سوف نرى بإذن الله اقوي من القيافة؛؛ لأنها تأتى بالمشاهدة الحقيقية للصفات الوراثية الآتية من كلا الأبوين، فكأنها رؤية عينية لاجتماع رجل وامرأة في نطفة أمشاج أثمرت عن ولد دونما كشف للعورات، أو مشاهدة لعملية الجماع بين الزوجين.

وهذا التفسير العلمي يجعلنا ننسب الولد إلى أبيه الصحيح الذي أتت منه النطفة،؛؛ لأنه من الثابت علميا أن بويضة المرأة الواحدة لا تُلقح إلا بحيوان منوي واحد فتنشأ النطفة الأمشاج التي نصف مادتها الوراثية من الأب والنصف الآخر من الأم. وقد يُظن أن هذا التفسير العلمي يخالف الشرع، فأقول وبالله التوفيق إن هذا التفسير العلمي قبل أن نعلمه من العلوم الطبية الحديثة علمناه من شرعنا الحنيف بالأدلة الآتية:

أولًا: يقول شرعنا الحنيف أن النطفة الواحدة للمرأة لا تُلقح إلا بنطفة رجل واحد مهما جامعها عدد كبير من الرجال، بدليل قول الله تعالى (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى)، ولذا قال صاحب كتاب بداية المجتهد (ولا يلحق واحد باثنين وبه قال الشافعي ، وعند مالك أنه ليس يكون ابنا للاثنين).

ثانيًا: يقول شرعنا الحنيف أن الولد ينسب للفراش، واختلف العلماء في تعريف الفراش على قولين أصحهما أن النسب في الإسلام يثبت لصاحب الماء (النطفة)، وهذان القولين هما:

1. القول الأول في تعريف الفراش:

الفراش بمعنى الزواج القائم، فيلحق بالزوج جميع ما تلد الزوجة وإن أتت به من الزنا، ذهب إلى ذلك بعض أهل العلم ومنهم الحنفية. والذي حمل الفقهاء على إثبات الفراش الحقيقي (الجماع) بقيام حالة الزوجية هو طبيعة

العلاقة الخاصة بين الزوجين القائمة على السرية والحياء، ولأنه لا يمكن الاطلاع على تلك العلاقة الخاصة، فإنه من الطبيعي أن ننتقل إلى ما يدل عليها وهو قيام الحالة الزوجية التي تجيز شرعًا وعقلًا اتصال الزوجين كسبب لحصول الولد، فاعتبر الفقهاء مظنة الفراش دليلا على الفراش (الجماع) والنسب.

والحقيقة أنهم بذلك قد ينسبون الولد لغير أبيه في بعض الأحوال التي يستحيل فيها علميا أن يكون الولد من هذا الأب كالسفر الطويل، أو الإصابة بالعقم لسبب واضح، أو أن تلد الزوجة لأقل من ستة أشهر بعد أول نكاح بين الزوجين. والأخذ بمظنة الفراش مع عدم قيام الدليل على الجماع في مثل هذه الأمور قد يؤدى إلى ظلم بين للزوج بأن ينسب إليه من ليس من صلبه، ولذا قال صلى الله عليه وسلم (الولد للفراش وللعاهر الحجر وحسابهم على الله) أخرجه الترمذي والطيالسي وصححه الألباني، مما يدل على أن تطبيق قاعدة الولد للفراش قد تؤدى إلى ضياع النسب في بعض الأحوال التي يحدث فيها الكذب، ولم يقام فيها الدليل على الفراش (الجماع) في مثل هذه الأحوال.

2. القول الثاني في تعريف الفراش:

الفراش بمعنى النكاح الحقيقي الذي منه الولد فيكون الفراش تعبير مهذب عن حالة اجتماع الرجل بالمرأة حيث تكون المرأة كالفراش لزوجها، وفي هذه الحالة لا يلحق بالزوج إلا ما كان من جماعه أي من صلبه، أي أن الولد لا ينسب إلا لأبيه الحقيقي صاحب الجماع الأول مع المرأة، وصاحب الجماع الثاني في النطفة الأمشاج كما رأينا في التفسير العلمي السابق لكلمة الفراش. وهذا هو قول جمهور أهل العلم وهو الذي يوافق التفسير العلمي السابق لكلمة الفراش بأنه الجماع وهو الأولى بالصواب للأسباب الآتية:

1. نص رواية البخاري (الولد لصاحب الفراش)، فنسب النبي صلى الله عليه وسلم الولد للذي جامع المرأة في الفراش وليس لذات الفراش. قال ابن حجر في الفتح (الفراش أي الجماع. قال بن أبي جمرة الظاهر أن الفراش كناية عن الجماع والكناية عن الأشياء التي يستحي منها كثيرة في القرآن والسنة)، وهذا من أخلاقه صلي الله عليه وسلم أن يُكني عن الجماع بلفظة الفراش كما في حديث (إذا دعا الرجل امرأته إلى فراشه فأبت فبات غضبان عليها لعنتها الملائكة حتى تصبح) متفق عليه.

2. تعريف القرآن للفراش بالجماع كما في قول الله تعالى (وَحَلاَئِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلاَبِكُمْ) النساء23 ، وقوله تعالى{هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ واحِدَةٍ وجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا}الأعراف 189، فالابن لا يكون من الصلب إلا إذا ثبت التغشي من الزوج للزوجة، والحمل الخفيف هو النطفة (حاملة الصفات الوراثية) وما يتبعها من بوادر الحمل الأولى كما قال بذلك الطبري والقرطبي وغيرهما.

3. اتفق العلماء على أن الزوجة لو أتت بولد من زواج قبل مضي ستة أشهر فإنه لا ينسب لهذا الزوج، فشرط الشافعي والجمهور الإمكان زمانا ومكانا.

ومع أن النسب في الإسلام يثبت لصاحب الماء كما تبين في القول السابق، إلا أن الأمر لا يزال محيرًا في كيفية إثبات العلاقة بين الزوجين والقائمة على الستر، لذا اضطررنا إلى التوجه إلى الأدلة الظاهرة لإثبات الفراش (من هو أبو الابن) وليس لإثبات النسب،؛ لأن النسب يكون اتفاقًا بالفراش.

وبما أنه ليس أدل على الجماع الأول بين الزوجين من وقوع الجماع الثاني بين الأمشاج في رحم الزوجة حيث إن بويضة المرأة لا تُلقح إلا بحيوان منوي واحد لرجل واحد، لتنشأ النطفة الأمشاج التي تحتوى على نصف الصفات الوراثية من الأب والنصف الآخر من الأم، ثم يتخلق الجنين في بطن أمه فتنتقل الصفات الوراثية من النطفة الأمشاج إلى كل خلايا الجنين بلا استثناء. وعليه فأي خلية تُأخذ من الولد فإننا نرى فيها الجماع الثاني الذي حدث في النطفة الأمشاج والذي يدل على النسب الحقيقي للولد بنسب متفاوتة عند استعمال القيافة وبنسبة أكيدة تصل إلى 100 % عند استعمال البصمة الوراثية كما سوف نرى بإذن الله في شرح القيافة والبصمة الوراثية.

* تحقيق الهدف الخامس للبحث:

تعريف القيافة من الناحية العلمية وتوضيح علاقتها بالفراش وبالبصمة الوراثية:

القيافة مصدر قاف بمعنى تتبع أثره ليعرفه، والقائف يراد به هنا الذي يعرف النسب بفراسته ونظره إلى أعضاء المولود ثم مقارنتها بأعضاء غيره من الناس للاستدلال على النسب. ولفهم العلاقة العلمية بين القيافة والبصمة الوراثية ينبغي أن نبدأ من الفهم العلمي لقضية الفراش حيث رأينا أن النسب في الإسلام يثبت لصاحب الماء، وأنه ليس أدل على الجماع الأول بين الزوجين من وقوع الجماع الثاني بين الأمشاج في رحم الزوجة حيث إن البويضة الواحدة لا تُلقح إلا بحيوان منوي واحد لرجل واحد، لتنشأ النطفة الأمشاج التي تنقل الصفات الوراثية إلى الولد، لذا فإن أي خلية تُأخذ من الولد فإننا نرى فيها الجماع الثاني الذي حدث في النطفة الأمشاج والذي يدل على النسب الحقيقي للولد بنسبة أكيدة تصل إلى 100 % عند استعمال البصمة الوراثية. فالقيافة والبصمة الوراثية ما هما إلا وسيلتين لمقارنة أوجه الشبه والاختلاف بين الآباء والأبناء من أجل التعرف على النسب الحقيقي للولد، فإذا نظرنا إلى الصفات الشكلية فتلك هي القيافة وإذا نظرنا إلى الحمض النووي فتلك هي البصمة الوراثية (صورة 17)، فالقيافة والبصمة الوراثية عبارة عن وجهين لعملة واحدة، إذ أن لكل صفة شكلية تخلق في الجنين صفة جينية مماثلة على الحمض النووي للنطفة الأمشاج.

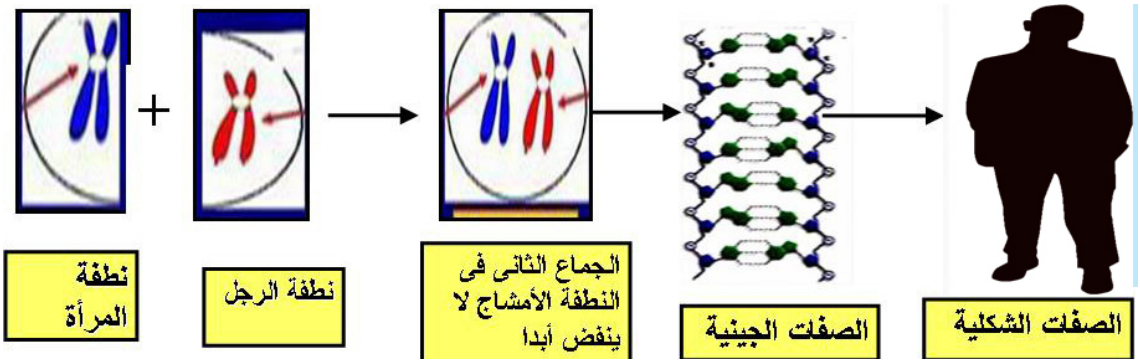

(صورة 17: علاقة القيافة بالفراش وبالبصمة الوراثية)

وقد يظن البعض أن هذا التفسير العلمي يخالف الشرع، فأقول وبالله التوفيق إن هذا التفسير العلمي هو منهج النبي صلى الله عليه وسلم القائم على ربط القيافة بالفراش وبالبصمة الوراثية، وذلك بالأدلة التالية:

1. النبي صلى الله عليه وسلم يعلم الفرق بين الصفة المكتسبة والصفة الموروثة

يخبرنا القرآن بإعجاز علمي غاية في الدقة، حين يقرر أن صفات الجنين تأتى من النطفة الأمشاج في البطون فإذا غابت صفة معينة في النطفة الأمشاج داخل البطن استحال أن توجد مثل هذه الصفة في المولود، قال تعالى (والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ والْأَبْصَارَ) 78 النحل، فجعل العلم صفة مكتسبة والسمع والبصر صفتان موروثتان، والفرق بين الصفتين هو:

* الصفات المكتسبة: هي صفه لم تخلق في آدم كالعلم واللغة ولكنه تعلمها من الله أو من البيئة المحيطة وبالتالي لا تورث في أبنائه فيخرجون من بطون أمهاتهم بدونها ثم يكتسبونها من البيئة المحيطة. قال تعالى (وعلم آدم الأسماء كلها) 31 البقرة، وعكس العلم الجهل فآدم كان يجهل كل شيء ولم تكن من صفاته الوراثية العلم ولو كان كذلك لما احتاج إلى أن يعلمه الله. ويؤكد هذا المعنى أن ذرية آدم هي الأخرى تخرج إلى الدنيا لا تعلم شيئا مما يؤكد بأن العلم ليس بصفة موروثة (و الله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا) 78 النحل.

* الصفات الموروثة: هي كل صفه شكليه خلقها الله في آدم وحواء كالسمع والبصر ثم جعل الله لها صورة جينية على الحامض النووي لكل خلاياهم بما فيها الخلايا الجنسية المسؤولة عن تكوين الأمشاج في الأصلاب، وبالتالي فإن هذه الصفة تورث إلى الأبناء فيخرجون من بطون أمهاتهم بها، قال تعالى (و الله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ والْأَبْصَارَ) 78 النحل، فالإنسان يخرج من بطن أمه بالسمع والبصر؛ لأن جينات السمع والبصر موجودة في النطفه الأمشاج، وهو ما أكده النبي صلى الله عليه وسلم بقوله (إذا مر بالنطفة اثنتان وأربعين ليله بعث الله إليها ملكا فصورها وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها وعظامها) رواه مسلم، فبين صلى الله عليه وسلم أن هناك تصوير من النطفة قبل خلق الأعضاء وهو ما أسماه العلم الحديث نسخ الحامض النووي الموجود في النطفة وترجمته إلى بروتينات الأعضاء.

2. النبي صلى الله عليه وسلم يعلم أن الصفات الموروثة تأتى من كلا الأبوين

قال تعالى (إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا) 2 الإنسان، وقد أجمع المفسرون نقلا عن عدد كبير من الصحابة أن النطفة الأمشاج هي اختلاط نطفة الرجل بنطفة المرأة، ولذا قال تعالى {يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى} 13الحجرات.

3. النبي صلى الله عليه وسلم يعلم سبب الشبه بين الابن وأبيه أو أمه:

الصفات الوراثية قد تميل إلى نطفة الأب أو نطفة الأم أو كليهما، ولهذا أخذ النبي صلى الله عليه وسلم بالشبه وبين سببه، فقال لليهودي الذي جاء يسأله عن الولد (أما الولد فإذا سبق ماء الرجل ماء المرأة نزع الولد وإذا سبق ماء المرأة ماء الرجل نزعت الولد) البخاري، وفي رواية أخرى (وأما شبه الولد أباه وأمه فإذا سبق ماء الرجل ماء المرأة نزع إليه الولد وإذا سبق ماء المرأة ماء الرجل نزع إليها) رواه أحمد في مسنده وصححه الألباني.

4. النبي صلى الله عليه وسلم يعلم الصفات السائدة والمتنحية، والصفات المتنحية لا تستخدم في القيافة.

قال صلى الله عليه وسلم للأعرابي الذي جاء يسأله عن لون ابنه فقال (يا رسول الله إن امرأتي ولدت غلاما أسود، فقال هل لك من إبل؟ قال نعم قال (ما ألوانها). قال حمر قال (هل فيها من أورق). قال نعم، قال (فأنى كان ذلك). قال أراه عرق نزعه قال (فلعل ابنك هذا نزعه عرق))، صحيح البخاري.

والحديث يظهر أن ما يحدث في الأبناء من تغير في الصفات الوراثية ليس بمعزل عن الآباء والأجداد. وقد أثبت علم الوراثة أن في كل خلية من خلايا الجسم عددًا ثابتًا من أجسام صغيرة تسمى كروموسومات (سماها النبي صلى الله عليه وسلم بالعروق) تحمل عوامل وراثية مسئولة عن الصفات التي تظهر في الإنسان، وقد يكون تأثير العامل الوراثي سائدا (Dominant) في أحد الأبوين على الآخر فتظهر الصفة السائدة في الابن مشابها بذلك أحد الأبوين، وقد يكون تأثير العامل الوراثي خافيًا مستترًا، فيطلق عليه في هذه الحالة العامل الوراثي الكامن أو المتنحي (Recessive) ، فإذا اتفق وكان كل من الأب والأم يحملان أحد هذه الصفات المتنحية، فإن ربع أولادهم تقريبا ستظهر فيهم هذه الصفة المتنحية، وذلك لاجتماع الصفتين من كلا الأبوين.

لذا فإن الشبه بين المولود ووالديه قد يكون غير ظاهر، بل بعيد عن كلا الأبوين مما يجعلنا غير قادرين على استخدام القيافة في التعرف على نسب الولد، وهذا ما أخبر عنه الرسول صلى الله عليه وسلم عندما جاءه الأعرابي يقول له: ولدت امرأتي غلامًا أسود، وهو حينئذ يعرض بأن ينفيه، ولم يرخص له النبي في الانتفاء منه وذلك لسعة علم رسول صلى الله عليه وسلم بالسائد والمتنحي، ولقدرته التي لا تدانى في الحوار والإقناع، بحيث أرجع السائل إلى ما يعهده من إبله سائلًا إياه عن ألوانها حتى إذا قرر السائل الحقيقة بنفسه كانت الحجة دامغة تملأ عقله وقلبه، وتزيل ما قد ران على نفسه من ظلال الشكوك القائمة في زوجته.

بل إن النبي صلي الله عليه وسلم يذكر بمنتهي الوضوح أن صفات الجنين الوراثية لا يحددها الأبوان فقط بل الأجداد أيضًا وصولا بالجد الأكبر آدم عليه السلام، فيقول صلى الله عليه وسلم (إذا أراد الله جل ذكره أن يخلق النسمة فجامع الرجل المرأة طار ماؤه في كل عرق وعصب منها فإذا كان يوم السابع أحضر الله عز وجل له كل عرق بينه وبين آدم ثم قرأ "في أي صورة ما شاء ركبك") رواه الطبراني، وصححه الألباني.

بيان وجوب الأخذ بالقيافة بالدليل النقلي الموافق لعلم الوراثة:

ذهب جمهور أهل العلم إلى وجوب الأخذ بالقيافة عند الاختلاف على نسب الولد لدلالة السنة والآثار عليها، فقد أقرها النبي صلى الله عليه وسلم وفعلها بنفسه وأقام عليها الأحكام، ومارسها أصحابه:

فمن إقراره صلى الله عليه وسلم قوله لأمنا عائشة (ألم تريْ أن مجزِّزًا المدْلِجِي نظر آنفًا إلى زيد بن حارثة وأسامة بن زيد وعليهما قطيفة قد غطيا رؤوسهما وبدت أقدامها فقال: إن هذه الأقدام بعضها من بعض) رواه البخاري، وهذا يدل على إقراره صلى الله عليه وسلم للقيافة وحاشاه أن يسمع باطلًا فيقره.

و من ممارسته صلى الله عليه وسلم للقيافة ما ثبت من حديث ابن عباس (أن هلال بن أمية قذف امرأته عند النبي صلى الله عليه وسلم بشريك ابن سحماء فقال النبي صلى الله عليه وسلم "البينة أو حد في ظهرك"، فقال يا رسول الله إذا رأى أحدنا على امرأته رجلا ينطلق يلتمس البينة فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يقول "البينة وإلا حد في ظهرك". فقال هلال والذي بعثك بالحق إني لصادق فلينزلن الله ما يبرئ ظهري من الحد فنزل جبريل وأنزل عليه "والذين يرمون أزواجهم"، فانصرف النبي صلى الله عليه وسلم فأرسل إليها فجاء هلال فشهد والنبي صلى الله عليه وسلم يقول "إن الله يعلم أن أحدكما كاذب فهل منكما تائب"، ثم قامت فشهدت فلما كانت عند الخامسة وقفوها وقالوا إنها موجبة. قال ابن عباس فتلكأت ونكصت حتى ظننا أنها ترجع ثم قالت لا أفضح قومي سائر اليوم فمضت فقال النبي صلى الله عليه وسلم "أبصروها فإن جاءت به أكحل العينين سابغ الإليتين خدلج الساقين فهو لشريك بن سحماء"، فجاءت به كذلك فقال النبي صلى الله عليه وسلم "لولا ما مضى من كتاب الله لكان لي ولها شأن") رواه البخاري. وزاد الإمام مسلم في صحيحه (أبصروها فإن جاءت به أبيض سبطا قضيء العينين فهو لهلال بن أمية وإن جاءت به أكحل جعدا حمش الساقين فهو لشريك بن سحماء، قال فَأُنْبِئْتُ أنها جاءت به أكحل جعدا حمش الساقين).

في هذا الحديث نراه صلى الله عليه وسلم يمارس القيافة بمهارة علمية لا تأتي إلا من نبي لا ينطق عن الهوى، ولذا ينبغي فهم الأسس العلمية التي بني عليها النبي صلي الله عليه وسلم القيافة، وموافقتها لعلم الوراثة:

1. العلم بكيفية توارث الصفات الشكلية من الآباء إلى الأبناء عبر النطفة

سبق وبينت أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يعلم الفرق بين الصفة المكتسبة والصفة الموروثة، وأن الصفات الموروثة تأتى من كلا الأبوين، ويعلم بأن صفات الجنين الموروثة تأتى من ترجمة الصفات الجينية في النطفة الأمشاج إلى صفات الجنين الشكلية، ويعلم سبب الشبه بين الابن وأبيه أو أمه، ويعلم أن الصفات الوراثية

منها السائد والمتنحي وأن الصفات المتنحية لا تستخدم في علم القيافة، إذا فالنبي صلى الله عليه وسلم كان يحكم في قضايا النسب وهو على علم بأصول علم الوراثة.

2. العلم بأن القيافة تعتمد على ارتباط الصفات الوراثية للمولود بنطفة صاحب الفراش، وليس بالفراش القائم، ولذا فإنه لم يكتفي في قضية هلال باللعان، بل أراد أن يأتي بالدليل الكامل على براءة هلال، فأقام القيافة بالعلم قبل مشاهدة المولود في هذه القضية، فالنبي لم يرى المولود ولكن تنبأ بصفاته اعتمادا على معرفة صفات هلال وشريك، ولمعرفته صلى الله عليه وسلم أن الصفة الشكلية المستخدمة في القيافة لها مقابل في النطفة التي تنقل الصفات الوراثية من الآباء إلى الأبناء. وهذا الذي فعله النبي صلى الله عليه وسلم هو ما يفعله عالم الوراثة حين يتنبأ بالصفات الوراثية لجيل الأبناء بناءً على معرفة الصفات الوراثية لجيل الآباء.

3. معرفته صلى الله عليه وسلم للشروط العلمية الواجب توافرها عند ممارسة القيافة، ومع أن هذه الشروط غير مُعلنة تفصيليا، إلا أنها تُفهم من خلال ممارسته صلى الله عليه وسلم للقيافة في واقعة هلال وهي:

* الشرط الأول لإجراء القيافة: وجود جميع أطراف النزاع في قضية النسب من الأب والأم والابن المتنازع في نسبه، والمتهم بالزنا مع الأم، فلا يُقارن شكل الابن المتنازع في نسبه بأقارب الآباء، وذلك؛ لأن الابن المتنازع في نسبه أخذ نطفته من الآباء ولم يأخذها من أقاربهم، وبالتالي فوجه الشبه بالآباء هو محل البحث، وليس وجه الشبه لأقارب الآباء، فالناس ربما تشابهوا شكلا ولو لم تكن بينهم أي صلة قرابة من قريب، ولكن ربما كان لهما قريب من بعيد ولو لم يكن هذا القريب إلا آدم عليه السلام أبو البشر مصدر الصفات الوراثية لكل البشر.

وفي حالة هلال ابن أمية، نجد جميع أطراف القضية ما عدا الابن المتنازع في نسبه فكان في بطن أمه، ولذا أجل النبي صلي الله عليه وسلم القيافة إلى أن يولد فقال (أبصروها فإن جاءت به)، مع إخفاء النية المبيتة على القيافة عن المرأة الحامل حتى لا تقتل ولدها. ولعل هذا السبب هو الذي حمل النبي على التعجيل باللعان وعدم انتظار المولود لإجراء القيافة، وذلك حفاظا على حياة الجنين فلا تقتله الأم خوفا من افتضاح أمرها إذا علمت أن الحكم في نسب وليدها يعتمد على القيافة، وفي هذا الفعل أشد الرحمة من النبي الذي لم يهتم ببراءة صاحبه المسلم بقدر ما اهتم بسلامة تلك النفس البشرية التي قدرها الله ولا ذنب لها في أن الأم زانية.

ومما يدل أيضًا على ضرورة وجود جميع أطراف النزاع حديث ابن عبد زمعة، وفيه غاب الأبوان عن المشهد وكان المدعي بالنسب إخوة الولد، فحكم النبي صلي الله عليه وسلم بالفراش ولم يأخذ بالشبه برغم علمه الجيد بالأبوين، ولهذا الحديث وقفة خاصة بعد قليل في الرد على من استخدم هذا الحديث في رفض القيافة.

* الشرط الثاني لإجراء القيافة: لا يقل عدد الصفات الشكلية التي تستخدم في القيافة عن ثلاثة، فقد قال صلى الله عليه وسلم (أبصروها فإن جاءت به أكحل العينين سابغ الإليتين خدلج الساقين فهو لشريك بن سحماء)، فحدد النبي صلى الله عليه وسلم ثلاث صفات شكلية للقيافة، وبني عليها حكمًا واضحًا.

* الشرط الثالث لإجراء القيافة: تنوع الأعضاء المستخدمة كوجه شبه في القيافة، ففي الحديث السابق استخدم النبي صلى الله عليه وسلم أعضاء مختلفة كالعين والإلية والساق.

* الشرط الرابع لإجراء القيافة: لا تستخدم في القيافة إلا أبرز الصفات الشكلية التي يتميز بها الآباء عن غيرهم من الأشخاص، فلابد في القيافة أن نختار صفات شكلية مختلفة في كلا الرجلين، وهذا الشرط هو الذي يحدد نوعية الصفات العضوية المستخدم في المقارنة، فلا تختار الأعضاء بطريقة عشوائية، ولكن تختار الأعضاء التي تعطى للأب صفاته الشكلية المميزة له عن غيره من البشر، والتي يتوقع أن تكون صفات سائدة فيه بحيث يمكن لها أن تسود في نطفة الابن. فالابن قد يشبه غير أبيه في صفة أو صفتان، أما أن تكون ثلاثة صفات فتكون صعبة، وتكون أصعب إذا اشترطنا التشابه في الصفات المميزة لشخص ما عن باقي الأفراد المحيطين به.

وهذا هو ما فعله النبي صلى الله عليه وسلم حين قال في رواية الإمام مسلم (أبصروها فإن جاءت به أبيض سبطا قضيء العينين فهو لهلال بن أمية وإن جاءت به أكحل جعدا حمش الساقين فهو لشريك بن سحماء، قال فانبئت أنها جاءت به أكحل جعدا حمش الساقين). فاختار النبي صلى الله عليه وسلم أبرز ثلاث صفات في هلال (أبيض سبطا قضيء العينين)، وأبرز ثلاث صفات في شريك (أكحل جعدا حمش الساقين)، إذا فالنبي صلى الله عليه وسلم لم يختر ثلاثة أعضاء ثابتة في الشخصين للمقارنة ولكن اختار أميز الأعضاء للمقارنة في كل شخص وهذا من فقه النبي صلى الله عليه وسلم الذي قام على فهمه لعلم الوراثة.

فإذا تحققت هذه الشروط الأربعة السابقة في القيافة فإن النسب يقع بها يقينا لا ظنا، بدليل أن النبي صلى الله عليه وسلم لما رأى صفات شريك في الجنين قطع ببنوته لشريك وقال كما عند البخاري (لولا ما مضى من كتاب الله لكان لي ولها شأن) ليقينه أن ما فعله حق لا شك فيه ولا ظلم، ولولا أن اللعان وقع وصار أمر

المتلاعنين إلى الله وحده لحكم النبي صلى الله عليه في هذه المسألة برجم الزانية كما حكم ببراءة هلال ابن أمية.

الرد الشرعي والعلمي على من رفض الأخذ بالقيافة

يكفي للرد على من رفضها أن النبي صلي الله عليه وسلم قد مارسها بنفسه كما في حديث هلال ابن أمية وأقرها كما في حديث أسامة ابن زيد. ومما يدل على أن القيافة حق أجمعت عليه الأمة أن عمر ابن الخطاب قضى بمحضر من الصحابة بالقيافة من غير إنكار، فكان كالإجماع، (كان عمر يليط أولاد الجاهلية بمن ادّعاهم في الإسلام فأتى رجلان إلى عمر رضي الله عنه كلاهما يدعي ولد امرأة فدعا قائفًا فنظر إليه القائف فقال: لقد اشتركا فضربه عمر بالدرة ثم دعا المرأة فقال أخبريني خبرك فقالت: كان هذا ـ لأحد الرجلين ـ يأتيها في إبل لأهلها فلا يفارقها حتى يظنّ أنه قد استمر بها حمل ثم ينصرف عنها فأهريقت عليه دمًا ثم خلف عليها هذا ـ يعني الآخر ـ فلا أدري من أيهما هو، فكبر القائف، فقال عمر للغلام: فإلى أيهما شئت فانتسب) أخرجه مالك في الموطأ وصححه الألباني.

ثم إذا نظرنا إلى أدلة من رفضوا القيافة كالحنفية الذين قالوا أن القيافة لا يُلحق بها نسب؛؛ لأنها ضرب من الظن، لوجدنا أنهم قد استدلوا لرأيهم بأدلة يسهل ردها بعد فهم منهج النبي صلي الله عليه وسلم عند إجراء القيافة، ومن أدلتهم التي ظنوا منها أن القيافة ظن وأن النبي صلي الله عليه وسلم قد رفضها:

أولًا: حديث أبو هريرة (أن رجلا أتى النبي فقال ولد لي غلام أسود فقال "هل لك من إبل"، قال نعم قال "ما ألوانها"، قال حمر قال "هل فيها من أورق"، قال نعم قال "فأنى ذلك"، قال لعله نزعه عرق قال "فلعل ابنك هذا نزعه عرق") رواه البخاري. فظن البعض أن النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث قد حكم بأنه لا عبرة للشبه في النسب على سبيل العموم، وقد مال إلى هذا الرأي عدد من العلماء الذين قالوا بأن القيافة تعتمد على الشبه الظاهر في الأعضاء وفيها قدر من الظن، كما أن القافة يمكن أن يختلفوا، بل ويلحقوا الطفل بأبوين لوجود الشبه فيهما.

وينبغي هنا أن نلتفت إلى أن الذين رفضوا القيافة استنادا إلى هذا الحديث لم ينتبهوا للأسس العلمية التي استند إليها النبي صلى الله عليه وسلم في المواقف التي حكم فيها بالقيافة والمواقف التي رفض الحكم فيها بالقيافة. فالذين استدلوا بهذا الحديث لم يلاحظوا أن الرجل أتى يشتكى من صفة شكلية واحدة في ابنه وليست عدة صفات وليس له أي شاهد على أنها قد زنت، وبالتالي فقد سقط أحد شروط القيام بالقيافة وهو عدد الصفات الذي لا يقل عن ثلاثة كما في حديث هلال. كما أنه صلى الله عليه وسلم يعلم أن الصفات الوراثية تسود وتتنحى عبر الأجيال بدليل قوله (فلعل ابنك هذا نزعه عرق)، ولما كان لون الجلد ربما تأثر بصفات

الآباء والأجداد، فلم يأخذ النبي شكوى الرجل سبب في اتهام امرأته لعدم وجود دليل واضح، بل إن الدليل الذي استدل به الرجل صار هو دليل البراءة لامرأته. والمتدبر لفعل النبي في هذه الواقعة يلمس الحكمة النبوية المتحركة بأمر الله، فنراه يحمي الأعراض والأنساب من التهم الباطلة ويريح نفوس الشاكين بالحجج العلمية، فلم يكتفي برفض الدعوى لعدم توفر الأدلة بل سعى إلى تثبيت أواصر العلاقة الزوجية بين الزوجين من خلال إزالة شبهة الزنا من قلب الزوج.

وقد يقول البعض بأن النبي صلي الله عليه وسلم أخذ بصفة واحدة وهي الأقدام كما في حديث أمنا عائشة (إن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل على مسرورا تبرق أسارير وجهه فقال ألم تري أن مجززا نظر آنفا إلى زيد بن حارثة وأسامة بن زيد فقال إن هذه الأقدام بعضها من بعض) رواه البخاري ومسلم، فنرد عليه بأن سرور النبي في هذه الحالة ليس فيه دلالة قطعية على ثبوت بنوة أسامة إلى زيد بالقيافة؛ لأنه لم ينص على ذلك بالقول الصريح كما في حديث هلال وشريك، وإنما يُستدل به على جواز القيافة وفقط، فالنبي في هذه الحالة لم يكن يحاول أن ينفي النسب وإنما يحاول أن يثبته وأي دليل يؤدى إلى ذلك الغرض مؤكد أنه يدخل السرور على النفس ولكن لا يجزم بالنسب لعدم تعدد الصفات المشتركة بين الأب وابنه. كما أنه لم تكن هناك قضية نسب من الأصل فأبو أسامة لم يشتكى أصلا عدم بنوة ابنه إليه ولم يتهم أمه بالزنا، وإنما الذي حدث أن العرب هي التي كانت تتكلم في ذلك؛ لأن لون أسامة كان أسود كلون أمه (أم أيمن)، في حين أن أبوه كان أبيض اللون. ولذلك قال ابن حجر تعليقا على هذا الحديث في فتح الباري (هذا الحديث فيه الرَّدُّ عَلَى مَنْ زَعَمَ أَنَّ الْقَائِف لَا يُعْتَبَر قَوْله).

ثانيا: استدل البعض على رفض القيافة بحديث أمنا عائشة عن ابن وليدة زمعة (كان عتبة بن أبي وقاص، عهد إلى أخيه سعد بن أبي وقاص، أن ابن وليدة زمعة مني، فاقبضه إليك، فلما كان عام الفتح أخذه سعد فقال: ابن أخي، قد كان عهد إلى فيه، فقام إليه عبد بن زمعة فقال: أخي وابن وليدة أبي، ولد على فراشه، فتساوقا إلى رسول الله، فقال سعد: يا رسول الله، ابن أخي كان عهد إلى فيه، وقال عبد بن زمعة: أخي وابن وليدة أبي، ولد على فراشه، فقال صلى الله عليه وسلم: "هو لك يا عبد بن زمعة"، ثم قال صلى الله عليه وسلم "الولد للفراش، وللعاهر الحجر". ثم قال لسودة بنت زمعة: "احتجبي منه" لما رأى من شبهه بعتبة، فما رآها حتى لقي الله تعالى) متفق عليه.

وقد أشكل هذا الحديث على الكثير، حيث إن النبي صلى الله عليه وسلم أمر سودة بالاحتجاب من ابن وليدة زمعة، وقد ألحقه بأبيها زمعة فهو أخوها، فكيف يكون أخاها وتؤمر بالاحتجاب منه؟. وهذا الإشكال

يزول إذا فهمنا حيثيات النزاع، لنرى هل شروط القيافة التي حددها النبي صلي الله عليه وسلم في حديث هلال ابن أمية اكتملت في حديث ابن وليدة زمعة أم لا.

ففي هذا الحديث تنازع اثنين في نسب ابن وليدة زمعة، سعد ابن أبي وقاص الذي أراد أن ينسبه إلى أخيه عتبة ابن أبي وقاص، وعبد ابن زمعة الذي أراد أن ينسبه إلى أبيه فيكون أخا له، مع العلم بان عتبة كان معلوم شكلا لدى النبي وزمعة كان أبو سودة زوج النبي، وبالتالي فهو معلوم شكلا للنبي. ولكن لغياب أطراف النزاع الأصليين وهم الآباء فقد حكم النبي صلى الله عليه وسلم بالولد للفراش (أي لعبد ابن زمعة) وترك القيافة مع علمه بأنها حق، ومع أنه رأى قوة الشبه بين ابن وليدة زمعة وبين عتبة ابن أبي وقاص. ونلاحظ هنا أن النبي أقام حكم القيافة على علمه بشكل الأبوين الغائبين (عتبة وزمعة) ولم يقمه على شكل المتخاصمين (سعد وعبد ابن زمعة)، حيث قال لسودة (احتجبي منه، لما رأى من شبهه بعتبة) مما يؤكد على أن القيافة لا تقوم إلا بوجود الآباء وليس أقارب الآباء مما جعل النبي لا يحكم بالقيافة في الظاهر لعدم اكتمال شروطها، ولكنه أخذ بها حين قال لسودة احتجبي منه يا سودة، فنفذت سودة الحكم ولم يرها بعد ذلك.

إذا فالنبي يبنى النسب بالقيافة على أسس علمية كما بينت، فإذا اجتمعت هذه الأسس حكم بها النبي، وإذا لم تجتمع كما في هذا الحديث لم يحكم بها، ولكن يحترز بالشبه الذي تدل عليه القيافة ويبنى عليه الأحكام كما في أمره لسودة بالاحتجاب. وهنا نلمح بعد جديد أن الآباء (سعد ابن أبي وقاص وعبد ابن زمعة)، لو وجدا لحكم النبي بالقيافة ولقدمها على الفراش والله تعالى أعلى وأعلم، وربما دل هذا على أن الفراش ليس أقوى الأدلة في النسب وإلا لما أمر الرسول صلي الله عليه وسلم سودة بالاحتجاب.

* تحقيق الهدف السادس للبحث:

هل يمكن استخدام البصمة الوراثية كبديل للقيافة؟

من الناحية العلمية وبناءً على ما سبق يمكن القول بأنه "إذا كانت القيافة تعتمد على علامات الوراثة الظاهرة وهي طريق فيه شيء من الظن لمن لم يحسن فهم الأسس العلمية لها، فإن البصمة الوراثية تعتمد على علامات باطنة وهي تحليل عوامل الوراثة المشتركة بين الولد والأب. لذا فإننا يمكن أن نعتبر البصمة الوراثية الـ " DNA" التي لا ظن فيها هي قيافة العصر". وقد مال إلى هذا الرأي عدد من العلماء الذين قالوا بأن القيافة تعتمد على الشبه الظاهر وفيها قدر من الظن الغالب، أما البصمة الوراثية فهي تعتمد اعتمادًا كليًّا على بنية الخلية الجسمية الخفية وهي تكون من أي خلية في الجسم ونتائجها تكون قطعية لكونها مبنية على الحس والواقع.

وفي الحقيقة الأخذ بالبصمة الوراثية (الصفة الجينية) هو الأقوى وهي الأصل والقيافة (الصفة الشكلية) تابع لها، فالصفات الجينية للجنين من الأبوين تتحد أولا في النطفة الأمشاج قبل ترجمتها إلى الصفات الشكلية في الأرحام. وفي الحقيقة لا يمكن؛ لأنسان أن يحيط بجميع الصفات الشكلية؛ لأنسان ما، فكما رأينا في حديث هلال ابن أمية أن النبي صلى الله عليه وسلم اكتفى بثلاث صفات شكلية في ممارسته للقيافة، وهذه الصفات الشكلية الثلاثة لا تعبر إلا عن عدد محدود من الصفات الجينية على الحمض النووي، وكلما رفعنا عدد الصفات الشكلية المستخدمة في المقارنة كلما أمكننا التعبير عن عدد أكبر من الصفات الجينية على الحمض النووي، بينما إذا استخدمنا الحمض النووي (البصمة الوراثية) فإنه يمكن لنا أن نحيط بكل الصفات الجينية، مع العلم بأن لكل صفة شكلية صفة جينية مقابلة على الحمض النووي، فكأننا بالبصمة الوراثية عقدنا مقارنة كاملة بين كل الصفات الشكلية للولد وأبيه ولكن من خلال الصفات الجينية المقابلة للصفات الشكلية.

* تحقيق الهدف السابع للبحث:

هل يمكن اعتبار البصمة الوراثية شاهد قبل اللعان؟ رؤية جديدة ربما تخدُم الفُقهاء

بعد إثبات حديث القرآن والسنة عن الحمض النووي ودوره في انتقال الصفات الوراثية من الآباء إلى الأبناء، واستخراج الأسس العلمية للبصمة الوراثية في القرآن والسنة، وبيان الإعجاز العلمي في فهم النبي صلى الله عليه وسلم لارتباط الفراش والقيافة بالبصمة الوراثية، نأتي إلى السؤال المهم والذي بدأتُ البحث لأجله، هل يمكن أن نحتكم إلى البصمة الوراثية كشاهد علمي من أعضاء الجسد قبل الوصول إلى اللعان؟. وإجابتي لهذا السؤال ليست فتوى فهذا ليس بعملي، ولكن كما قلت في المقدمة أن هدفي هو تقديم الأدلة الكافية على ذكر الأُسس العلمية للبصمة الوراثية في القرآن والسنة، لكي تكون هاديا لعُلمائنا الأجلاء من أهل التخصص في الشريعة الإسلامية لكي يستفيدوا بها في الحكم الصحيح على مشروعية استخدام البصمة الوراثية في إثبات النسب أو نفيه، بالإضافة إلى استخدامه كأداة تعرف على الأشخاص في علم الجريمة، مع ضرورة التنبيه الشديد على أخذ كافة الاحتياطات اللازمة لمنع الخطأ والتلاعب بنتائج البصمة الوراثية. ومعلوم أن كثير من أهل العلم يرفض تقديم البصمة الوراثية على اللعان مستدلين بقول الله تعالى {وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاء إِلَّا أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ}النور 6.

ونص الآية واضح وصريح في أن اللعان لا يأتي إلا بعد انعدام الشهداء، من هم الشهداء المنصوص عليهم في الآية (وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاء إِلَّا أَنفُسُهُمْ)؟ ولماذا لم يحدد الله عددهم بأربعة كما في قوله تعالى {وَاللاَّتِي يَأْتِينَ

الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَاسْتَشْهِدُواْ عليهنَّ أَرْبَعةً مِّنكُمْ} النساء15، وكما في قوله تعالى {لَوْلَا جَاؤُوا عليه بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاء فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاء فَأُوْلَئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ} النور13.

والإجابة عن ذلك تكمن في فهم أن كلمة شهداء في قول الله (وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاء إِلَّا أَنفُسُهُمْ) جاءت نكرة، والنكرة ما دلَّ على شيء غير معيّن وغير معروف كقولك (رجل – كتاب)، ومعلوم أن النكرة تفيد العموم والشمول، مما قد يدل على أن الشهود ليسوا حصريا الأربعة المذكورة في الآيات الأخرى وإنما قد يجوز أن يكونوا شهود من غير ألسنة البشر التي قد تشهد بالزور والكذب، والأدلة على ذلك كثيرة منها ما يأتي:

أولًا: القرينة العلمية العقلية تصلح كشاهد يمنع الوصول إلى اللعان وتُقدم عليه، ومن أمثلتها التي تمنع نسب ولد امرأة ما إلى زوجها: إذا أنجبت امرأة ولد بعد زواج لأقل من ستة أشهر، أو إذا أنجبت امرأة ولد في سفر طويل للزوج يستحيل معه وجود فراش قائم، أو إذا أنجبت امرأة ولد لزوج لم يبلُغ الحُلُم، أو إذا أنجبت امرأة ولد لزوج خصي (لا خصية له) أو عنين (لا انتصاب لذكره) أو مجبوب (مقطوع الذكر)، والخصي لا مني له، أما العنين والمجبوب فقد يكون لهما مني، ولذا يشترط في هذه الحالة اعتراف الزوجة أن زوجها لم يدخل منيه بيده إلى فرجها.

فهذه الأمثلة السابقة تثبت حق الزوج في نفي الولد وإثبات أنه ولد زني دون الحاجة إلى اللعان، ولذا اعتبر جمهور الفقهاء أن الزوجة لو أتت بولد من زواج قبل مضي ستة أشهر فإنه لا ينسب لهذا الزوج، فشرط الشافعي والجمهور الإمكان زمانا ومكانا. والقرينة العلمية العقلية كشاهد قبل اللعان أمر معلوم عند صحابة رسول الله صلي الله عليه وسلم وقد استخدموها لمنع اللعان لكونها شاهد قوي، ومن ذلك حديث المرأة التي ولدت لستة أشهر وفيه (أَنَّ عُثْمَانَ بْنَ عَفان أُتِيَ بِامْرَأَةٍ قَدْ وَلَدَتْ فِي سِتَّةِ أَشْهُرٍ ، فَأَمَرَ بِهَا أَنْ تُرْجَمَ، فَقَالَ لَهُ على: لَيْسَ ذَلِكَ عليها ،وقد قال اللَّهَ تَبَارَكَ وتَعَالَى فِي كِتَابِهِ: "وَحَمْلُهُ وفِصَالُهُ ثَلاَثُونَ شَهْرًا" ، وقَالَ: "وفصاله في عامين" وقال: "وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلاَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ" قال: والرضاعة أربعة وعشرون شهرًا والْحَمْلُ سِتَّةَ أَشْهُرٍ فأمر بها عُثْمَانُ أن ترد ، فَوُجَدَت قَدْ رُجِمَتْ) رواه مالك في موطأه.

وهذه القصة قد اختلف فيها العلماء اختلافًا كثيرًا، فمنهم من يرويها لعثمان مع على، ومنهم من يرويها عن عثمان مع ابن عباس، ومنهم من يرويها لعمر بن الخطاب مع على بن أبي طالب، وقد اشتهرت عند أهل العلم وفي كتب التفاسير لاستنباط أن المرأة قد تلد لستة أشهر، وبالتالي فلا يحق للزوج أن ينفي نسب الولد إليه ولا أن تُتهم أمه بالزني، بل ولا يحق له أن يصل إلى اللعان، وهذا ما حدث في كل روايات هذا الحديث حيث تم رفض طلب الزوج برجم الزوجة بعد أن ثبت علميا إمكان الولادة لستة أشهر، ولم ترد بهذه الروايات

ما يقول أن الزوج طلب اللعان، ولو طلبه فليس لولي الأمر أن يطيعه؛؛ لأنه لا حُجة له ولا شاهد له على إن زوجته قد زنت، بل المرأة هي التي لها شاهد علمي يحول دون الوصول إلى اللعان.

فإذا كانت القرينة العلمية العقلية تصلح كشاهد يمنع الوصول إلى اللعان ويُقدم عليه، فمن باب أولى تقديم البصمة الوراثية على اللعان لكونها شاهد علمي حسي أقوى من القرينة العلمية العقلية التي لا تستند إلى الحس التجريبي.

ثانيًا: لا يشترط في البينة أو القرينة أن تكون بأشخاص معدودين، يقول ابن القيم الجوزية في كتابه الطرق الحكمية في السياسة الشرعية (البَيِّنَةُ اسم لكل ما يُبين به الحق ويُظهره، ومَنْ خصها بالشاهدين، أو الأربعة، أو الشاهد لم يوف مُسَمَّاهَا حقه، ولم تأت البينةُ قط في القرآن مرادًا بها الشاهدان، وإنما أتت مراداً بها الحجةُ والدليل والبرهان، مُفْرَدَةً ومجموعة.....انتهى). فمن الصعب رد القرائن القاطعة التي تصل إلى حد اليقين كما في قصة يوسف عليه السلام، عندما جاء إخوته على قميصه بدم كذب زاعمين أن الذئب قد أكله تاركا قميصه سليما لم تمزقه الأنياب {وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ} 18 يوسف، فدلت هذه القرينة على كذب قصة إخوته. أيضًا كان شق من جهة معينة في قميص يوسف عليه السلام صالح؛ لأن يكون شاهد براءة له كما في قوله تعالى {وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وهُوَ مِن الصَّادِقِينَ} 27 يوسف.

بل إن القيافة مع أنها لا تقارن في قوتها مع البصمة الوراثية كما سبق وبينت، إلا أنها كانت قرينة قوية بينت النسب الصحيح للولد في قضية هلال ابن أمية حيث نسبه رسول الله صلى الله عليه وسلم للشريك ابن سحماء الأب الحقيقي المتهم بالزنى. ولما كانت نتائج البصمة الوراثية يقينية قطعية لكونها مبنية على الحس والمشاهدة عند مقارنة الحمض النووي للولد مع أبيه، فكيف لنا إذا أجرينا تحليل البصمة الوراثية وثبت أن الطفل من الزوج وأراد أن ينفيه باللعان، كيف نكذب الحس والواقع والعقل، ولا يمكن البتة أن يتعارض الشرع الحكيم مع العقل السليم في مثل هذه المسائل المعقولة المعنى، فإنكار الزوج وطلب اللعان بعد ظهور النتيجة يعد نوع من المكابرة والشرع يتنزه أن يثبت حكمًا بني على المكابرة.

ثالثًا: رب العزة يوم القيامة حين تكذب الألسنة، يأخذ بشهادة الجوارح والأركان ويترك شهادة اللسان، قال تعالى {الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ }يس65، وقال {وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ علينَا قَالُوا أَنطقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ }فصلت21. ولما كان كل شيء خلقه الله ينطق فمن المؤكد أن الحمض النووي يستطيع أن ينطق ويشهد بما كان من أمر أبويه وهل ركب من سفاح أم من زواج شرعي معروف فيه من هو الأب ومن هي الأم. فالبصمة

الوراثية للولد تشهد على صاحب نطفته شهادة حقيقة صحيحة بنسبة 100%، إلا إذا تم التلاعب بها أو حدثت أخطاء تقنية أثناء إجراءها، ويكفي أن الله قد نسب الذرية لآدم (بني آدم) وأخذ الذرية من الأصلاب بهذه البصمة فلم يحدث عنده اختلاط للأنساب.

رابعًا: منطق العقل وغالبًا لا يخالفه الشرع أن شهادة البصمة الوراثية أقوى من اللعان؛؛ لأنها مبنية على دليل واضح أما قول البشر في اللعان فهو متساوي الطرفين في الصدق أو الكذب أي بنسبة (50 %)؛؛ لأنه إما أن يكون الزوج صادقًا أو تكون الزوجة صادقة، فهل من الفقه أن ندع بينة قطعية تصل لـ 100% ونأخذ ما هو محتمل للصدق بنسبة 50% وننسب ذلك للشريعة؟؟!! مع العلم بأن في إثبات النسب رعاية لحق الصغير وأصل من أصول الشريعة في حفظ الأنساب، وحفظ للمجتمع من خراب الذمم في هذا الزمان، وقد قال تعالى (ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله). فإلحاق نسب الطفل بأبيه مقصد عظيم من مقاصد الشريعة، فإذا أثبتت البصمة الوراثية نسب طفل وأراد الأب لأوهام وشكوك أو للتهرب من النفقة أو لأي غرض آخر – مع ضعف الذمم في هذا الزمان – فإن العدل يقتضي أن نلحق الطفل بأبيه ولا نمكن الأب من اللعان لئلا يكون سببًا في ضياع الطفل، مع العلم بأن هذا هو فعل النبي صلى الله عليه وسلم في قضية هلال ابن أمية حين قال في رواية البخاري (أبصروها فإن جاءت به أكحل العينين سابغ الأليتين خدلج الساقين فهو لشريك بن سحماء)، فجاء شبيهًا لشريك – فقال النبي – صلى الله عليه وسلم-: " لولا الإيمان لكان لي ولها شأن " فقد أفاد الحديث أنه حتى لو تمت الملاعنة بين الزوجين وولد الطفل شبيهًا بالزوج صاحب الفراش فإنه ينسب له ولا ينفى عنه؛ فلماذا إذا لا نستخدم البصمة الوراثية كشاهد يمنع الوصول إلى اللعان وكأداة علمية ننسب بها الطفل إلى أبيه الصحيح صاحب نطفته، هذا بالطبع إذا ضمنا عدم حدوث أخطاء أثناء إجراء البصمة الوراثية، مع التشديد في عقوبة من ينفي أو يثبت نسب ولد ما ثم يثبت كذبه بعد القيام بالبصمة الوراثية وذلك لكي يكون عبرة لمن سولت له نفسه الكذب والتلاعب بالأنساب.

* تحقيق الهدف الثامن للبحث:

لماذا يفضل استخدام البصمة الوراثية في الجريمة كقرينة وليس كدليل دامغ؟

شتان ما بين استخدام البصمة الوراثية في اختبارات النسب وفي التعرف على الجاني في أي جريمة، ففي الأنساب أطراف النزاع تكون معروفة قبل سحب العينات، وبالتالي استخدامها في التعرف على الأنساب يبني

على اليقين. أما في التعرف على الجناة في شتي الجرائم، فالجاني غالبًا مجهول ومسرح الجريمة قد يوجد فيه العديد من العينات البيولوجية (مني، شعر، دم، لعاب أو غيرها) على سبيل الصدفة وربما يتهم البريء مكان الجاني، نضيف إلى ذلك أن الجاني ربما لجأ إلى تزوير مسرح الجريمة لتوجيه نظر العدالة إلى شخص آخر غير الجاني الحقيقي، فربما أتي الجاني عن عمد بأحد أجزاء شخص آخر (دم- مني- شعر) وأضافها لمسرح الجريمة، وما أسهل ذلك بالنسبة إلى الجناة وخصوصًا إذا كانت الجريمة على مستوى دولي كبير كالتي تقوم بها مخابرات بعض الدول أو العصابات الكبيرة. ولذا فأرى من وجهة نظري القاصرة أن تبقي البصمة الوراثية قرينة قابلة للقبول والرفض حسب قناعة المحققين والقضاة ورؤيتهم وتقديرهم لكافة وقائع الجريمة، شأنها في ذلك شأن كل القرائن التي تكتشف في أي جريمة كبصمات الأصابع وفصائل الدم والأسلحة، إلى غير ذلك مما قد يكون في مسرح الجريمة، فإما أن تكون أدلة حقيقية تدل على الجاني أو تكون أدلة مضللة للعدالة. وهذا الرأي الذي قلته بفضل الله هو ما أقره مجلس المجمع الفقهي الإسلامي لرابطة العالم الإسلامي في دورته (15) المنعقد في مكة المكرمة التي بدأت يوم السبت 1419/7/9 هـ الموافق 1998/10/31 م.

الخاتمة

في زمن لم يكن فيه للعلم التجريبي وجود يُذكر أو آلة تُعرف، ولم يكن بمقدور أي أحد معرفة كيف تُخلق الأجنة في بطون الأمهات، أو كيف تنتقل الصفات الوراثية من الآباء إلى الأبناء عبر الحمض النووي للنطفة الأمشاج، في ذلك الزمن البعيد منذ ما يزيد على أربعة عشر قرنا من الزمان، جاء الحبيب محمد صلي الله عليه وسلم الذي لا ينطق عن الهوى بالحق المبين وبالعلم اليقين الذي لم يعرفه العلم الحديث إلا منذ أعوام قليلة، فقرر أن ولد المرأة إذا حدث على نسبه نزاع فإنه يكون لصاحب الفراش أي للذي جامع في الفراش، ثم بين لنا كيف نتعرف على صاحب الفراش دون هتك لستر أحد، فبين كيف نستخدم أبرز الصفات الشكلية للجنين في التعرف على أبوه الحقيقي الذي جاءت منه النطفة من خلال القيافة المبنية على أسس علم الوراثة كما نعرفها في زماننا، فأخبرنا صلى الله عليه وسلم عن الفرق بين الصفة الموروثة والصفة المكتسبة، مبينا أن هناك تصوير من النطفة قبل خلق الأعضاء وهو ما أسماه العلم الحديث نسخ الحامض النووي الموجود في النطفة وترجمته إلى بروتينات الأعضاء. كما بين صلي الله عليه وسلم أن الصفات الموروثة تأتي من كلا الأبوين، وبيّن أيضًا أن الصفات الوراثية للولد قد تميل إلى نطفة الأب أو نطفة الأم أو كليهما، ولهذا أخذ النبي صلى الله عليه وسلم بالشبه وبين سببه، بل إنه صلى الله عليه وسلم قد بين لنا أن الصفات الوراثية منها السائد والمتنحي، وأن الصفة السائدة هي التي تستخدم في القيافة أما المتنحية فلا تستخدم.

وكما أوحى الله إلى النبي صلي الله عليه وسلم بكيفية التعرف على صاحب الفراش باستخدام القيافة (علم مقارنة الصفات الشكلية)، فقد أوحي إليه أيضًا بما سوف يكون في آخر الزمان من استخدام الناس للبصمة الوراثية (علم مقارنة الصفات الجينية)، فالحمض النووي كبصمة يدل على صاحبه، ويدل على أبويه، ولا عجب في هذا الإخبار؛ لأن الذي أوحي بالقرآن والسنة إلى نبي هذه الأمة هو الله العليم الخبير.

ولما كان الحمض النووي يعتبر بمثابة الصورة للجسد، فالتصوير هو أدق الألفاظ لوصف العلاقة بين الحمض النووي والجسد، ولوصف انتقال الصفات الوراثية من الآباء إلى الأبناء. وباستخدام كلمتي الخلق والتصوير بين لنا رب العزة في القرآن الأسس العلمية للبصمة الوراثية، وشرح لنا العلاقة بين الحمض النووي والجسد، فبين أن الحمض النووي يعتبر صورة مطابقة للجسد، وأن الحمض النووي يطلق عليه صورة حسنة؛؛ لأنها تطابق صاحبها وتدل عليه، وأنه لا يوجد كائنين لهما نفس الحمض النووي، ولذا أطلق على نفسه اسم المصور، أي (الذي صَوَّر جميع الموجودات ورتبها فأَعطى كل شيء منها صورة خاصة يتميز بها على كثرتها). ثم بين لنا رب العزة أنه لا يمكن أن يتشابه الحمض النووي لفردين من نفس الجنس البشري لحدوث التصوير التحسيني. وختم رب العزة كلامه عن التصوير في القرآن بوصفه للحمض النووي لذرية بني آدم بأنه يعتبر بمثابة صورة مركبة للجسد، نصفها من الأب والآخر من الأم، ويمكن فصل النصفين عن بعضهما، والتعرف على كروموسومات الأب والأم بسهولة (اختبار البنوة). فالبصمة الوراثية تعتبر رؤية غير مباشرة لأصحاب الفراش دون كشف للعورات، وتعتبر أقوي من القيافة،؛؛ لأنها تمكننا من أن نحيط بكل الصفات الجينية، فكأننا بالبصمة الوراثية عقدنا مقارنة كاملة بين كل الصفات الشكلية للولد وأبيه ولكن من خلال الصفات الجينية المقابلة للصفات الشكلية. وختاما أسأل الله العظيم رب العرش الكريم أن يكون توفيقه قد أصاب كلامي فجعله سهلًا ميسور الوصول إلى القلوب قبل العقول، وأن يكون فيه النفع العظيم لعُلمائنا الأجلاء من أهل التخصص في الشريعة الإسلامية لكي يستفيدوا به في الحكم الصحيح على مشروعية استخدام البصمة الوراثية في إثبات النسب أو نفيه، مع ضرورة التنبيه الشديد على أخذ كافة الاحتياطات اللازمة لمنع الخطأ والتلاعب بنتائج البصمة الوراثية.

المراجع العربية

1. القرآن الكريم
2. تفسير ابن كثير
3. تفسير القرطبي

4. تفسير الطبري
5. تفسير البيضاوي
6. فتح القدير
7. معاني القرآن الكريم بتحقيق محمد على الصابوني
8. مفردات القرآن
9. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للألوسي
10. التحرير والتنوير
11. تفسير الرازي
12. تفسير الكشاف
13. الجواهر الحسان في تفسير القرآن للثعالبي
14. صحيح البخاري
15. صحيح مسلم
16. مسند الإمام أحمد
17. موطأ مالك
18. فتح الباري
19. المستدرك للحاكم
20. السلسلة الصحيحة للألباني
21. مجمع الزوائد للهيثمي
22. المغرب في ترتيب المعرب
23. كتاب العين
24. المقصد الأسنى
25. تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي لمؤلفه: محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفوري
26. أسماء الله الحسنى الثابتة في الكتاب والسنة: د. محمود عبد الرازق.

27. تأويل مختلف الحديث لمؤلفه: عبدالله بن مسلم بن قتيبة أبو محمد الدينوري.

28. مختار الصحاح

29. لسان العرب

30. تاج العروس

31. معجم مقاييس اللغة

32. معجم لغة الفقهاء

33. المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم

34. أحكام التصوير في الفقه الإسلامي: محمد بن احمد على واصل

35. علم الأجنة في الكتاب والسنة. كيث مولر (طبعة الهيئة العالمية للإعجاز العلمي)

36. مدخل لدراسة الهندسة الوراثية. أ. د. محمد حافظ (كلية طب المنصورة)

37. الدكتور مكرم ضياء شكارة – علم الخلية – دار الميسرة للنشر والتوزيع والطباعة – عمان 1999 م

38. الأستاذ الدكتور مدحت حسين خليل محمد – علم حياة الإنسان- جامعة الأزهر 1998 م

39. الطرق الحكمية في السياسة الشرعية لابن قيم الجوزية

40. انتقال الصفات الوراثية من الآباء إلى أمشاج الذرية بالخلق والتصوير. د. محمود عبدالله نجا. مجلة الهيئة العالمية للإعجاز العلمي بالقرآن والسنة. العدد 45.

41. البصمة الوراثية ومدى مشروعية استخدامها في النسب والجناية: عمر بن محمد السبيل (إمام وخطيب المسجد الحرام، وعضو هيئة التدريس بكلية الشريعة بجامعة أم القرى)، http://islamport.com/w/fqh/Web/4095/1.htm

42. موقع الوراثة الطبية (شبكة الإنترنت)

المراجع الأجنبية:

43. **Breaking Point (Biomechanics of chiasma). By Adam Summers ،is an assistant professor of ecology and evolutionary biology and bioengineering at the University of California ،Irvine. American museum of natural history September 2005.**

44. DNA structure and recognition 1994 (book) ،Neidle ،Stephen. IRL press

45. Technology From Genes to Genomes.Concepts and applications of DNA. 2002. Dale ،Jeremy W and others.

46. Genetics.from genes to genomes 2000. Leland Hartwell and others

47. Genomes Modern Genetic Analysis 2002. Griffiths ،Anthony J. F

48. Wikipedia ،the free encyclopedia (http://en.wikipedia.org/wiki(

49. Attanasio C، Nord AS، Zhu Y، et al. Fine tuning of craniofacial morphology by distant-acting enhancers. Science. 2013 Oct 25;342(6157):1241006. doi: 10.1126/science.1241006.

50. Liu F، van der Lijn F، Schurmann C، et al. A genome-wide association study identifies five loci influencing facial morphology in Europeans. PLoS Genet. 2012 Sep;8(9):e1002932. doi: 10.1371/journal.pgen.1002932. Epub 2012 Sep 13.

51. Rebecca Morelle (Science reporter، BBC World Service). Light shed on how genes shape face. 24 October 2013. http://www.bbc.co.uk/news/science-environment-24654707

52. Alok Jha.، 24 October 2013 Faces are sculpted by 'junk DNA'

53. BETHANY BROOKSHIRE. 24، 2013 Science News.What makes a face go round